محمد عبد المنعم خفاجي

مواكب الحرية في مصر الإسلامية

دار ممفيس للطباعة - ت ٢٦٨١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

هذا منهج جديد فى دراسة التاريخ المصرى، فى فترة طويلة تصل إلى اثنى عشر قرنا من الزمان ، منذ الفتح الإسلامى لمصر ، حتى عهد الشرقاوى وعمر مكرم والسادات أبطال المقاومة الشعبية للغزو الفرنسى لبلادنا العريقة المناضلة .

وهذه الفترة يعد تاريخها غامضا مبهما قليل المصادر التاريخية التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة التاريخ الإسلامى المصرى فى هذه العصور الطويلة.

وقد عرضت فى هذا الكتاب أروع مواقف البطولة والنضال والحرية فى تاريخنا الخالد ، وتحدثت عن مجد مصر وعظمتها وازدهار حضارتها خلال هذه الأجيال البعيدة ، فى أسلوب يكاد يقرب من الأسلوب القصصى ، مع تحديد التاريخ والأشخاص والأماكن التى عرضت لها تحديدا كاملا ، ولم أقصد بهذا الكتاب عرض التاريخ المصرى كله العرض المألوف عند كتابنا ومؤرخينا ، إنما أردت عرض المواقف الخالدة فى ماضينا العريق ، والتحدث عن حركات التحرير والثورة والكفاح والبناء ، التى قام بها شعب مصر ببسالة وإقدام وروعة تصميم .

وفى تاريخنا مفاخر كثيرة يجب أن يعيها كل مصرى ، وأن نلقنها لأبنائنا فى المدارس والمعاهد المختلفة ، حتى يتسنى لهم أن يعرفوا فضل شعبهم على الحضارة والإنسانية من قديم، وما أسدته مصر للشعوب العربية من أياد جليلة خلد الزمان ذكراها ، وحب وطننا للحرية ودفاعه المجيد

عن استقلاله ، ومقاومته للطغاة والغزاة خلال الأجيال . وعلى ضوء الماضى يمكن أن نفهم حاضرنا وما يمده به تراثنا القديم وبطولات شعبنا الباسل من قوة وحرارة وإيمان بالعزة والكرامة وبالسلام جميعا .

وفى هذه الفصول تصوير صادق وفى للأحداث والمحن التى مرت بمصر ، والتى قابلها المصريون بعزم وتضحية وتصميم شديد على المقاومة . لم أجانب حقائق التاريخ فى كل كلمة كتبتها ، ولم أتعمد كذلك إغفال عظمة هذا الشعب فى الأزمات والشدائد والخطوب التى أحاطت به .

والتاريخ المصرى لا يزال غموضه وإبهام حقائقه يسببان الانصراف عن مطالعة أسفاره ، والملل عند قراءة فصوله . لذلك آثرت عرض هذا التاريخ فى صور جذابة وبأسلوب فيه من القصة ملامحها وتسلسلها وروعة تصويرها .

وإن هذه الصور الإثنين والعشرين لتجمع أطراف التاريخ المصرى فى اثنى عشر قرنا من الزمان ، وأعتقد أن كتابة تاريخ بلادنا على هذا النهج ، يجعل الشباب أكثر إحاطة بمفاخر وطنهم ، وبطولة شعبهم ،وأمجاد أمتهم التى وعاها الزمان ، واهتز بجلال صفحاتها المشرقان .

وفى تصوير البطولة ، والحديث عن التضحية ، وتدوين حركات التحرير ، وتسجيل ثورات الحرية ، وتخليد ذكريات الكفاح والجهاد فى ماضينا الطويل . . ما سوف يدفع بالشباب إلى قراءة تاريخهم ، والإحاطة بشتى جوانبه ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم بمجد مصر ، وعظمة مصر ،ومآثر مصر على مر القرون .

وشعبنا شعب ذكى يقظ أبى ، عشق الحرية من قديم ، ودافع عن استقلاله بكل ما أوتى من وسيلة ، وهو يحب السلام ، وإن كان لا يجبن عن خوض أعنف المعارك ، دفاعا عن كيانه وشرف حماه ، خوفا أن يدنسه الطغاة او الغزاة ، ونضاله منذ أقدم العصور من أجل حريته واستقلاله قد سجلته أوراق البردى وشتى مصادر التاريخ . .

وهو كذلك الذى تولى الدفاع عن العروبة والإسلام خلال الأجيال ، وبجهاده فشلت الحملات الصليبية ، وسحقت جيوش التتار المدمرة ، وانتهت سيطرة الخلافة العثمانية على بلادنا ، وهزمت جيوش فرنسا وانجلترا مرارا فى داخل أراضينا . . وهكذا كتب الشعب المصرى على مرور الأجيال أروع صفحات المجد والتاريخ التى تسجلها هذه الفصول .

شعب البطولات

يا أمة نبتت فيها البطولات
لا مصر هانت ، ولا الأبطال قد ماتوا
ما يبرح المجد يدعونا فنتبعه
كما تطير إلى النار الفراشات
أين الغزاة الألى مروا بنا زمرا
وأين بالله تيجان ودولات
طافوا البقاع فلما حل رحلهمو
بمصر لم يصبحوا فيها كما باتوا
كأن صخرة أقدار تحطمهم
وما من القدر المحتوم إفلات
مروا ، ومصر على التاريخ باقية
كصفحة حولها للنور هالات[1]

---

(١) من شعر الدكتور ابراهيم ناجي.

وطن المجـــد

يا وطنى الخالد :

لك المجد ، ولك الحمد ، ولك أمجد صفحات التاريخ .

ياوطنى ، يا مصر ، يا أم الحضارة ، ومهد المدنية ، ومعلمة الشعوب ، والمدافعة عن حريات الأمم ، وحامية تراث الإسلام من تدمير الصليبيين والتتار: لك العزة والثناء ، ولك الحرية والفداء ،ولك العظمة والكبرياء .

يا وطنى :

لقد وقفت خلال عصور التاريخ تقاوم الغزاة الفاتحين ، مقاتلا باسلا ، ومحاربا صلبا ؛ فطردت الهكسوس والفرس واليونان والرومان من أرضك ، وأبعدت خطر الصليبيين والتتار عن حماك وثراك ؛ وأقمت بسواعد أبنائك حضارات مشرقة ، وامبراطوريات مصرية ضخمة، انحنى لها التاريخ ، وهتف بذكرها الزمان .

يا وطنى :

بيد أحمس ورمسيس ، وبيد عمرو بن العاص ، وابن طولون ، والمعز وصلاح الدين ، وبيبرس ، وبرقوق ، والأشرف بن قلاوون ، وعرابى ؛ رفعت أعرق لواء ، وأمجد راية ، وأرفع شعار للحرية والمجد ، والجلال والقوة والعظمة .

يا وطنى :

إن الامبراطورية المصرية فى عهد عمرو بن العاص وخلفائه ، ثم فى عهد المعز وذريته ، ثم فى عهد صلاح الدين الأيوبى وسلالته ؛ ثم فى عهد المماليك ، ثم فى القرن التاسع عشر ؛ كانت من أعظم الأعمال فى التاريخ ، وكانت رمزا وعزة ومنارة للإسلام والمسلمين ، وكهفا تأوى إليه الحضارة والثقافة الإسلامية .

يا وطنى الخالد :

لقد وقف الانجليز فى القرنين التاسع عشر والعشرين لنهضتك وحريتك ومجدك بالمرصاد ، فقضوا على الأسطول المصرى فى ناڤارين ، وقضوا على الجيش المصرى وحرموه ثمرة انتصاراته الحربية العظيمة ، ثم نهبوا امبراطورية مصر بسياسة الخداع والتضليل ، ثم صفوا بقاياها فى عهد إسماعيل ، ثم ورثوها فى عهد توفيق بعد الاحتلال ، ولكنهم وشرفك وكفاح أبنائك ، ونضال شعبك الحر الأبى لن يتمكنوا من هزيمة مصر اليوم وبعد اليوم، بإذن الله، وبفضل شعبها الحر الأبى ، الذى كتب أروع أعمال البطولة فى دفاعه المجيد عن بور سعيد ، مما شهد به العالم ، وسجله التاريخ .

يا وطنى :

لقد لقنت الغزاة درساً لن ينسى ، وعلمتهم أن أرض مصر حرام

على المستعمرين ، وأنها أمنع من العقاب ، ما دام شباب مصر وشيوخها حريصين على أن يفتدوها بالمهج والأرواح .

بمجدك وتاريخك ، وبأبطالك وأبنائك ، وبقائدك الحر المنتصر ، سندافع عن حرياتنا وتراثنا ، وحضارة بلادنا ، وأرض آبائنا وأجدادنا سننتصر ، والنصر لنا بفضل الله ، وبسواعد شعبنا العريق فى المجد والتاريخ .

القائد المنتصر

اليوم يوم جمعة ، هى آخر جمعة من رمضان عام ٢١ هـ - ٢٩ أغسطس ٦٤٢ م

إن حصن بابليون يستقبل فى مطلع هذا اليوم الخالد أروع مواكب التاريخ .

إنه القائد المنتصر عمرو بن العاص فى جيشه الباسل، وقواده الأبطال ، يدخل الحصن بين صفوف متراصة من الشعب والجيش ، بعد أن سجل أعظم انتصار أحرزه فى حياته ؛ ويكبر القائد ، ويكبر الجيش ، والشعب يشهد فى فرح وعجب هذا المنظر الفريد من مناظر الغزاة الفاتحين .

لقد عاد القائد من الإسكندرية بعد أن فتحها وطرد جيوش الرومان منها ، ودانت له العاصمة الأولى لمصر ، فدانت له البلاد كلها ، وتحول مجرى التاريخ ، وبدأت مصر عهدا جديدا ، لم تر مثله فى ماضيها الحافل بالأحداث .

وصعد عمرو على سور الحصن ، يرسل بصره عبر الأفق ، والدنيا من حوله تشخص إليه ببصرها ، والزمان يرمقه كما يرمق أعز أبطاله ، والإنسانية كلها تتحرك لتشهد من جديد مصر وهذا القائد العربى الذى أصبح ببطولته سيد البلاد ؛ والنيل ، النيل الزاخر العميق ، يرنو فى صمت ، ويجرى فى هدوء ، يرقب القائد المنتصر ، وهو يرفع فى أعلى قمة الحصن

الراية الخضراء ، إيذانا بعهد جديد من السلام والرفاهية والأمان والرخاء، تشهده مصر بعد أجيال مديدة كانت شرا وبلاء على شعب مصر الحر الأبى .

ونزل القائد بين تكبير الجيش والشعب ، وسار أمام صفوف طويلة من الناس إلى هذا السهل الواقع شمالى حصن بابليون ، ونزل فيه هو وجيشه ، وأذن بصلاة الجمعة ، فوقف عمرو فى الصحراء ، وقد خط له خطوط ترمز إلى جهة القبلة .ونصب له منبر ، فصعد إليه . وخطب الناس وبشرهم بالفتح الجديد ، وتحولت هذه الصحراء رويدا رويدا إلى مدينة كبيرة سميت باسم الفسطاط ،وصارت عاصمة مصر الإسلامية ، وحكم منها عمرو وخلفاؤه مصر حكما عادلا مستنيرا ، وفى المكان الذى صلى فيه عمرو بنى له مسجده الجامع الكبير ، مسجد عمرو ، أومسجد أهل الراية ، الذى صار جامعة إسلامية كبرى ، تنشر العلم والنور والحضارة بين البلاد ، ويمتد ضوؤها إلى آفاق بعيدة كانت تعشو إلى الضياء .

لقد انتصر عمرو على جيش الرومان الضخم فى الإسكندرية ، على مائتى ألف رجل ، من الروم وأتباعهم ، يحميهم فى البحر أسطول ضخم يتكون من أكثر من مائة سفينة [1] بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهرا ، وكان عمرو قد سار إلى المدينة بجيشه فى جمادى الآخرة عام ٢٠ هـ ، سبتمبر سنة ٦٤١ م . وقد احتمى فيها المقوقس حاكم مصر من قبل

---

(١) راجع ٥٤ : ١ حسن المحاضرة للسيوطى .

امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) ثم قنسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨م) ، ولجأ إليها الجيش الرومانى بعتاده وأسلحته ، ومعهم عدد كبير من الشعب الذى كان يخاف من الحرب وويلاتها ، وأراد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) أن يخرج بنفسه للدفاع عن المدينة ورفع الحصار عنها ، إلا أنه مات وهو يستعد للخروج فى عام ٢٠ هـ - ٦٤١ م ، وكان هرقل يقول : لئن ظفرت العرب على الإسكندرية فسيكون فى ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم ، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ، وكان موته مثبطا للجيش الرومانى المدافع عن المدينة، وخلفه ابنه قسطنطين الذى وكل إلى المقوقس[١] الدفاع عن الإسكندرية ، ودارت الدائرة على الرومان فطلب المقوقس الصلح ، وعقد بينه وبين عمرو معاهدة نص فيها على عقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا ، وأن يبقى العرب فى مواضعهم مدة الهدنة ، وأن يكف الروم عن القتال ، وأن يرحل عن المدينة الجيش الرومانى فى البحر أو البر إن اراد ، وأن يدفع الجزية كل من دخل فى هذا العقد ، وأن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لاستعادتها ، وأن تحترم المسلمون الحريات الدينية لشعب الإسكندرية ، ولمن أراد الإقامة فيها من اليهود ، وأن يكون هناك رهائن من العسكريين والمدنيين فى يد عمرو حتى نهاية مدة هذه الهدنة، وقد أمضى هذه المعاهدة عمرو والمقوقس جميعا فى ١٧ ايلول عام ٦٤٢م .

---

(١) هكذا يرد اسمه فى المصادر العربية ، وتطلق عليه المصادر الإفرنكية اسم كيروس أو قيرس ، وهو البطريرك الذى عينه الإمبراطور هرقل حاكما على مدينة الإسكندرية، وكان له السيادة بحكم ذلك على مصر كلها . راجع ص ٤٤٤ فتح العرب لمصر — لبتلر .

لم يكن قد مضى حينئذ على دخول عمرو بن العاص مصر أكثر من عامين، استطاع أن يأتى فيهما بالمعجزات، وأن يحرز أكبر نصر شهده التاريخ، وأن يصبغ مصر الفرعونية بصبغة إسلامية جديدة، ولم يكن عمرو قد دخل مصر فى جيش ضخم، ولا فى عتاد كثير، ولم يكن معه مدافع ولا غيرها من وسائل النصر فى المعارك الفاصلة، إنما دخل مصر قائداً لجيش لا يزيد عدده على أربعة آلاف جندى، ووصلته أمداد أخرى أثناء المعارك الكبرى التى خاضها حتى بلغ جيشه خمسة عشر ألفا . وبهذا العدد القليل قضى على الإمبراطورية الرومانية فى مصر والشرق، وحمى الشام ـ التى فتحت من قبل ـ من هجوم الرومان عليها من الجنوب، وبلغ رسالة الله فى بلاد جديدة لم يشهدها العرب من قبل .

خمسة عشر ألفا وايم الله، فتح بهم عمرو دولة، وأسس ملكا، وشيد سلطاناً، ونشر دين الله بين شعب ما كان ينتظر أن يرحب بالإسلام والفتح الجديد هذا الترحيب .

دخل عمرو العريش فى ١٠ من ذى الحجة عام ١٨ هـ ـ ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ ،ثم اجتاح الفرما واستولى عليها فى أوائل عام١٩هـ ـ يناير ٦٤٠م ثم دخل بلبيس فى يوليو عام ٦٤٠ هـ ـ شعبان ١٩هـ، وانتصر على الجيش المرابط فيها، واستولى أخيرا على « أم دنين » وهى قرية صغيرة على النيل كانت تقع فى موضع حديقة الأزبكية اليوم، وطوق حصن بابليون بجيشه فى شوال ١٩ هـ ـ سبتمبر عام ٦٤٠ م، وكان بداخله خيرة الجيش الرومانى المدافع عن مصر، وقبل حصار الحصن وفى أثناء الحصار كان جيش عمرو

يقضى على المقاومة العسكرية فى الدلتـا وفى بعض أقاليم الصعيد الشمالية ، وكان فى الجيش الذى حاصر الحصن : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ،وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وسواهم من الأبطال الخالدين من أعلام الإسلام وصحابة رسول الله محمد بن عبد الله . وكانت المفاوضات تدور خلال الحصار بين رسل المقوقس ورسل عمرو بن العاص من أجل الصلح ، ولما لم تنته إلى نتيجة ـ تسور المسلمون الحصن وأمامهم الزبير وهو يكبر ويكبرون معه ، والجيش الإسلامى خارج أسوار الحصن يردد : الله أكبر ، الله أكبر ، ويسير الزبير ومن معه إلى باب الحصن الداخلى فيفتحونه ، ويتدفق منه المسلمون يحتلون الحصن ، ويقضون على المقاومة العسكرية فيه ، وسار عمرو يوم الجمعة ٢ المحرم عام ٢٠ هـ ـ ٢٢ ديسمبر عام ٦٤٠ بين صفوف جيشه الباسل ، يتقدمهم نحو دار الملك ، فدخلها ، وسجد لله شكرا ، وسجد معه قواد جيشه الباسل .

وفى أثناء الحصار كان المقوقس قد خرج من باب الحصن الغربى هو وكبار قواده ، ورجال دولته ، ليواصلوا الحرب ، واجتازوا النيل ، ونزلوا جزيرة الروضة ، وقطعوا جسر النيل ليحولوا بين جيش عمرو وبين اللحاق بهم ، ثم جاء الفيضان فجعل السير بعد الحصن مستحيلا أو كالمستحيل ؛ ولكن المقوقس رأى أخيرا استحالة الدفاع عن هذه المراكز العسكرية ، وطلب من عمرو الدخول فى مفاوضات للصلح ، فندب عمرو عبادة بن الصامت الذى وقع مع المقوقس معاهدة صلح نصت على أن للروم الخيار فى الصلح إلى أن يأتى رد امبراطور بيزنطة بالموافقة على الصلح أو

عدم الموافقة ، وأما أهل مصر فقد رضو بالصلح من غير ترك الخيار لهم، وعلى جميع البالغين من القبط ديناران كل سنة ، دون الشيوخ والأطفال والنساء ، وللمسلمين حق الضيافة على أهل مصر حيث ينزلون ثلاثة أيام ، وللمصريين أرضهم وبلادهم لا يعارضون فى شيء منها ، وتم ذلك الصلح فى ٩ نيسان ٦٤١ م .

وانتهى فتح مصر ، وزالت السيادة الرومانية عليها ، بعد ستة قرون كاملة (٣١ - ٦٤١ م) ، وبدأ عمرو ينظم مدينة الفسطاط ويشرف جماعة من قواده على خططها ، ومن بينهم : شريك المرادى ، وعمرو بن مخزوم الخولانى ، وابن ناشرة المغافرى ، ومعاوية بن خديج ، وسواهم [١] ، واختط عمرو حصن الجيزة ونزلت فيه قبائل عربية من بينها همدان عام ٢١ هـ ، وأخذ الزبير يختط الإسكندرية [٢] ، وحفر عمرو خليج أمير المؤمنين من النيل بجوار الفسطاط إلى البحر الأحمر على ميناء السويس ؛ وأخذ يرفع الظلم عن كاهل الشعب ، ويعامل المصريين بالعدل والرحمة والإنصاف ، لا ينقض عهدا ، ولا يخفر ذمة ، ولا يغتصب حقا لإنسان .

وتم بناء مسجد عمرو فى وسط الفسطاط عقب الفتح مباشرة، وذلك عام ٢١ هـ وكان موضع حدائق وأعناب ، وكانت أول خطبة خطبها عمرو فى مسجده بالفسطاط ، أن قال :

---

(١) راجع ١ : ٥٨ حسن المحاضرة ، ١ : ٦٠ الفتوحات الإسلامية لدحلان، وسوى ذلك من المراجع .

(٢) ١ : ٥٨ حسن المحاضرة للسيوطى .

« أيها الناس : حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم منهم صهرا وذمة، فكفوا أيديكم، وعفوا فروجكم، وغضوا أبصاركم . واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم إليكم ، وإلى داركم : معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة » .

إن الفتح الإسلامى لمصر كان معجزة من المعجزات ، ولقد أتى عمرو فيه من البطولة الحربية ما لم يأته قائد من قبل ولا من بعد ، وما بطولة روميل فى الحرب العالمية الثانية بجانب ما فعل عمرو منذ أربعة عشر قرنا من الزمان إلا صفحات من كتاب ، لقد كان عمرو بن العاص يدخل على المقوقس رسولا موفدا من قبل القائد عمرو بن العاص للصلح فى مناسبات عديدة ، ويحاور عمرو المقوقس ويجادله ، ثم يحاول الخلاص من يده إن لمح من المقوقس ووزرائه بارقة خيانة أو غدر ، وكان دائما يتقدم الصفوف، ويقتحم ميدان المعركة مع الصف الأول فيها ، ويطوف بجنده يتفقد أحوالهم ، ويواسى جرحاهم ، ويصلى على شهدائهم ، وكان ابنه عبد الله ابن عمرو بن العاص فى مقدمة الجيش الذى دخل الإسكندرية ، وكان عمرو يفعل أعمالا نبيلة خالدة خلال الفتح : أسر فى بلبيس بنت المقوقس

وهى زوجة هرقل الإمبراطور ، واسمها أرمانوسة — كما تقول الأساطير المأثورة — فبعث بها إلى أبيها مكرمة ، مع جميع ما كان لها ، وبعث معها قيس بن سعد ليحميها حتى دخل بها على والدها[١] .

ولم يكن لبطولة عمرو ولا لإنسانيته ولا لأريحيته مثيل .

وكان الشعب يحبه حبا عميقا ، فيه تقدير وإكبار ، وظل الشعب المصرى وفيا لعهده معه ، حتى إن الرومان لما حاولوا استرداد الإسكندرية عام ٢٥ هـ - ٦٤٦ م حاربهم الشعب مع عمرو حربا لا هوادة فيها ، وكان الجيش الرومانى قد حضر إلى الإسكندرية فى عدد ضخم ، وأسطول كبير ، يقودهم منويل ، وانضم إليهم من بالمدينة من الروم ، وتقدم الجيش الرومانى جنوب الإسكندرية إلى أن وصل إلى نقيوس ، وهى موضع زاوية رزين الحالية إلى الجنوب الغربى من مدينة منوف ، ولكن شجاعة عمرو ، وتأييد الشعب المصرى له ، مما أدى إلى هذا النصر المظفر الذى كان من آثاره هزيمة الرومان هزيمة ساحقة ، وقتل منويل فى المعركة ، وسلمت مصر من الغزو الرومانى لبلادها .

وظل عمرو يحكم البلاد ، إلا فترات قليلة ، حتى توفاه الله عام ٤٣ هـ ٦٦٤م بعد عمر طويل قضاه فى الكفاح من أجل نشر رسالة الإسلام فى مصر ، أرض المجد والكفاح ، ووطن الفراعين ، وبلاد الأهرام وأبى الهول والنيل[٢] . . .

---

(١) راجع فتوحات مصر ، وراجع الفتح ومقدماته فى ص ٤٤ الامبراطورية البيزنطية .

(٢) يقول عمر بن الخطاب : « مصر أرض واسعة ، عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا ، وقوة فى بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنة ، وعملوا فيها عملا محكما »

مهرجان الحرية

الإسكندرية فى ربيع عام ٣٥ هـ - ٦٥٥ م تستقبل يوما خالداً من أيام
ياتها المجيدة ، فى مهرجان لم تر مثله منذ الفتح الإسلامى لها منذ ثلاثة
شر عاما أو يزيد .

إنه يوم المجد ، وعيد الربيع ، ومهرجان الحرية .

إن الأسطول المصرى بقيادة والى مصر العربى عبد الله بن سعد بن
بى سرح القرشى [1] يدخل ميناء الإسكندرية ، وينزل منه القائد البطل
الجيش العربى الذى حقق انتصاراً بحريا فريدا كان له أثره فى مستقبل
لإسلام فى مصر وأفريقيا .

ويدخل القائد المدينة ، يتبعه قواده ، قواد المعركة البحرية التى أطلق
عليها المسلمون غزوة « ذات الصوارى » [2] ، ثم الجيش العربى الذى خاض
لمعركة ، وحقق أعظم انتصار بحرى شهدته مصر منذ قرون بعيدة ،
والشعب صفوف متراصة فى المدينة الخالدة ، التى تشاهد أمجادا حربية
جديدة لم يكن لها إلف بها منذ الفتح الرومانى لها عام ٣١ هـ .

إن الاسكندرية اليوم حرة طليقة ، وليست مكبلة بقيود العبودية التى
كبلها بها الرومان قرونا طوالا .

---

(١) تولى حكم مصر فى عهد عثمان ، ثم فى عهد معاوية من عام ٤٣ هـ حتى عام ٥٥ هـ

(٢) يرجح أنها منسوبة الى المكان الذى وقعت فيه ، وهو إقليم كان الفراعنة ثم العرب يجلبون منه الأخشاب لبناء السفن ، وقد حاول الروم إقصاء العرب عنه فلم يفلحوا .

إنها تعيش فى ظلال الإسلام ، الدين الإنسانى المتسامح ، المسلمون والمسيحيون واليهود ، العرب والأقباط ، على حد سواء فى المجتمع المصرى الجديد .

وفتحت الإسكندرية يديها لتستقبل الأبطال يوم عودتهم الميمونة ، ولتبارك لهم جهادهم ، ولتكرمهم فى أعظم مهرجان للحرية شهدته الإسكندرية .

ويسير القائد إلى مسجد المدينة ، ومعه قواده ، فيؤدى صلاة الشكر لله ، ويخطب المسلمين يبشرهم بالفتح ، ويذكرهم نعمة الله عليهم ، ويكبر الجميع فرحين مستبشرين بنعمة الله .

لقد كانت قصة هذه المعركة البحرية قصة طريفة حقا ، إنها تعادل معركة اليرموك فى الأهمية التاريخية ، وتتلخص أحداثها فى أن الامبراطورية البيزنطية كانت قد حاولت من جديد استرداد مصر ، وجمع امبراطورهم قنسطانز الثانى أسطولا ضخما لا يقل عن سبعمائة سفينة ، وحشدها بالجيوش والعتاد ، وعلم بالأمر قسم المخابرات الحربية فى مصر ، فقرر واليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أن يهاجم الأسطول الرومانى فى شواطىء امبراطورية بيزنطة نفسها لا على شواطىء مصر ، وخرج من الإسكندرية بأسطول مؤلف من أكثر من مائتى سفينة ، وسار الأسطول المصرى فى مياه البحر الأبيض المتوسط . وعلى مقربة من شواطىء الأناضول الجنوبية التقى بأسطول الدولة البيزنطية ، وتراشق الجيشان بالحجارة والنبال ، وجاء مدد للأسطول المصرى بعث به معاوية

والى الشام، وقرب القائد عبد الله بن سعد سفنه من أسطول العدو ، ثم ربط سفن أسطوله بسفن الأسطول الرومانى بالسلاسل ، واقتتلوا بالسيوف قتالا عنيفا عند فوينكس قرب شواطىء ليكيا بآسيا الصغرى ، قتل فيه عدد كبير من المسلمين ، ومن الرومان عدد لا يحصون ، وصبر الفريقان على حر القتال صبراً عجيبا لم يكن له مثيل فى موطن قط ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، فانهزم الجيش الرومانى هزيمة ساحقة ، وغرق منه الكثير فى مياه البحر الأبيض المتوسط ، ولم ينج من الرومان إلا الشريد، وفر الامبراطور بسفينة من سفن أسطوله، متوجها إلى صقلية، واتخذها مقرا لقيادته الحربية، ولكن الشعب الثائر فى صقلية على الامبراطور لفشله فى قيادة دفة الحرب ضد العرب أحاطوا بالامبراطور ، وصاحوا فى وجهه :

لقد أهلكت النصرانية ، وأفنيت رجالها ، ولو أتانا العرب فى بلادنا لم يكن عندنا من يمنعهم، لا الجيش لأنه فنى خيرة وحداته ، ولا الأسطول لأنه غرق فى مياه البحر الأبيض ، ولا شيء سوى ذلك ؛ وقاد الشعب الثائر فى صقلية امبراطوره العظيم إلى حمام القصر ، وقالوا له :

يا صاحب الجلالة : اصبر على انتقام الشعب ، إنك إن نقتلك اليوم فإنما نقتل شخصا واحدا ، من حيث قتلت أنت بسفهك وقلة خبرتك وكفايتك مئات الألوف من شباب الامبراطورية ، وبددت ملكا كبيرا لم تكن تحلم بمثله القياصرة والأكاسرة ، وسلمت البلاد للفاتحين العرب

فى هزيمة تلو هزيمة . . إنك يا صاحب الجلالة خائن لبلادك ، وقد حكم الشعب عليك بالإعدام .

وقذفوا بصاحب الجلالة فى الحمام حيث ذبحوه كما تذبح الأغنام فى سرقوصة ، أما حاشيته فقد أطلقوا سراحهم ، وقالوا : توجهوا أنتم إلى القسطنطينية ، إلى العاصمة ، ليحاكمكم شعب بيزنطة فيها[1] .

وعادت الإسكندرية تحتفل بأبطالها ، وبهذا النصر الأكبر ، الذى ضمن حريتها عدة قرون ، وعادت تؤكد فى مهرجانات حريتها أنها مصممة على ألا تقع فى قبضة الأعداء والامبراطور مرة أخرى .

وقد أكد هذا النصر العظيم سيادة العرب والإسلام على حوض البحر الأبيض المتوسط من جديد . . .

****

مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ؛ تمده عيون الأرض وينابيعها . .

— عمرو بن العاص —

---

(١) هذه هى رواية المصادر العربية ، أما المصادر الإفرنكية فتقول : إن الامبراطور اغتيل فى سيراكوز عام ٦٦٨ م (راجع الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ٥٥)

موكب الخليفة فى قرية مصرية

اليوم هو الثانى عشر من صفر عام ٢١٧ هـ - ٢٠ من مارس عام ٨٣٢م، إنه عيد الربيع، وعيد مصر كلها . .

الخليفة المأمون بن هرون الرشيد فى هذا اليوم الوادع الجميل يزور قرية مصرية نائية، إنه يتفقد أحوال الشعب المصرى فى كل مكان من مصر .

لقد ترك بغداد وعظمة قصورها، وما فيها من ترف ونعيم، ليتفقد أحوال شعبه فى مصر، وليحقق بنفسه أسباب الاضطرابات الداخلية التى شملت هذه البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

إن المأمون يمر بقرية طنامل المصرية [1]، أو «طاء النمل» كما كانت تسمى إبان ذلك العهد البعيد — ويقابله الشعب الوديع بالتكبير والتهليل، ولكن سيدة قبطية عجوزا تنبرى من بين الصفوف، وتسلم على أمير المؤمنين، وتسأله أن يقبل ضيافتها، ليكون لها ولأحفادها الشرف بزيارة الخليفة لها، وقبوله دعوتها، وقالت للخليفة : لا تشمت بى أيها الخليفة الأعداء، برفض دعوتى؛ وانحنت تلثم يدى المأمون وتدعو له، وانحدرت من مآقيها الدموع، فمسح الخليفة على رأسها، وقال لها : قد قبلنا دعوتك، إكراما لك، ورعاية لحق أمثالك، ونزل عليها بجيشه ورجاله، وكانت

---

(١) هى إحدى قرى مركز أجا من مديرية المنصورة .

ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه ، وفى الصباح بعثت إلى المـأمون بعشرة وصائف مع كل وصيفة طبق ، وفى كل طبق كيس من ذهب ،فاستحسن المـأمون ذلك ، وتعجب بما صنعت هذه السيدة ، وأمر بإعادة المال إليها ، فقالت : لا والله لا أفعل ، فتأمل الخليفة الذهب ، فإذا هو كلـه ضرب عام واحد ، فقال: هذا والله أعجب ، وربما عجز بيت مالنـا عن مثل ذلك ؛ فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ، ولا تحتقـر بنا ، فقـال : إن فى بعض ما صنعت لـكفاية ، ولا نحب أن تثقل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت :

يا أمير المؤمنين ، هذا ـ وأشارت إلى الذهب ـ من هذا ـ وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ـ ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شىء كثير .

فقال المـأمون : لا بأس خذوا منها ما رفعته هدية إلينا ، فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعفاها من بعض خراج أرضها .

وخرج المـأمون من أرض القرية المصرية الصـغيرة النائيـة مودعا بالحفاوة والوفاء من الشعب الوفى المخلص ، من الفلاحين الساذجين الطيبة قلوبهم ، من الفلاحات اللواتى كن يرددن الزغاريد ابتهاجا ، بالخليفة وزيارته لقريتهم [١] .

وهكذا ضرب المـأمون خليفة المسلمين مثلا جديدا للحكام والولاة ، عليهم أن العظمة لا تقوم إلا على احترام الشعب ، وأن الرفعة لا تنافى

(١) راجع خطط المقريزى ، و ١٥٨ الإدارة الإسلامية فى عز العرب .

التواضع والتحبب إلى قلوب الرعية ، وأن الدولة لا تقوم إلا بسواعد طبقاتها الصغيرة العاملة الكادحة .

لقد مر على القرى المصرية ، بل وعلى مدن مصر كذلك العديد من الأجيال والقرون ، وهى على ما أثق ، لم تشاهد طلعة حاكم كبير ، فضلا عن امبراطور أو ملك كبير .

ولكن المأمون وهو يزور مصر لا ينزل بمدنها فحسب ، ولكنه يذهب إلى أقاصى الجهات ، دارسا متفقداً لأحوال رعيته ، يطوف بالقرى ويزورها ، ويسأل عن أحوالها . . ويضرب المأمون لولاته مثلا رفيعا فى الاهتمام بشئون الشعب ، يعلمهم أنهم مسئولون عن سعادة هذا الشعب ورخائه وأمنه .

لقد كانت زيارة المأمون لمصر فى اليوم العاشر من المحرم عام ٢١٧ ﻫ ، ١٧ فبراير ٨٣٢ م ، لأن مصر كلها شملتها الثورة ، والاضطرابات عمتها من أقصاها إلى أقصاها [١] ، وخرج العرب والقبط جميعا على طاعة الولاة ، وخالفوا الطاعة ، وأخرجوا الموظفين من عملهم ، وثاروا على قوات الشرطة والجيش ، وكان ذلك بسبب سوء سيرة العمال فيهم ، وقضى المأمون تسعة وأربعين يوما يعالج الثورة ، ويحقق بنفسه الشكاوى ، ويتفقد أحوال الأمن ، وأتى بعامله عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه ، ووبخه قائلا له :

« لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس

---

(١) راجع ١٠٤ العرب والروم — دار الفكر العربى .

مالا يطيقون ، وكتمتمونى الخبر ، حتى تفاقم الأمر ، واضطرب أمن البلد. وإنى ما فتق على فتق فى مملكتى إلا وجدت سببه جور العمال».

وكان المأمون حسما لهذه الثورات قد رمى مصر قبل زيارته لها بقائد من أكبر قواده ، هو عبد الله بن طاهر بن الحسين (١٨٢-٢٣٠هـ). الذى تغلب على الأمين فى بغداد ، وكان عبد الله جليل القدر عادلا رحيما محبا للعلماء والشعراء ، ولما دخل مصر تقدم ومعه بعض زعماء الشعب إلى الفسطاط ، فدخلها بعد أن تغلب على حاكمها وذلك عام ٨٢٦ م ، وأجلى [١] ابن طاهر الأندلسيين الثائرين فى الإسكندرية ، وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً نفاهم أمير الأندلس ، فتوجهوا شطر الإسكندرية واحتلوها ، حتى أجلاهم عنها عبد الله بن طاهر ، فنزحوا فى سفن كثيرة إلى جزيرة كريت واحتلوها ، ثم أخذ ابن طاهر يصلح الأمور ويعالج المشكلات ويحل المعقد من المسائل ، قال يونس بن الأعلى : أقبل إلينا فى مصر فتى حدث من المشرق - يعنى ابن طاهر - والدنيا عندنا مفتونة ، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس فى بلاء ، فأصلح الدنيا وأمن البرىء ، وأخاف السقيم ، حتى استوثقت له الرعية بالطاعة .

وأقام ابن طاهر بمصر نحو سنة ونصف ، ولما بارحها عادت الثورة كما كانت من قبل إلى الاشتعال ، فأرسل المأمون بعد حين أخاه المعتصم على رأس جيش كبير للقضاء على الاضطرابات فى مصر ، غير أنه بعد

---

(١) وكان ذلك فى يونيو عام ٨٢٧ م ، ربيع الأول ٢١٢هـ (ص ٨٨ الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية) .

خروج المعتصم عاد الخوف إلى التسلح والعصيان، وتبعه عرب الاسكندرية وانضم القبط إلى هؤلاء وهؤلاء ، وأصبحت الثورة جامحة ، واحتل الفلاحون من أهل الوجه البحرى عاصمة البلاد ، وفر الوالى وعماله من وجههم ، فبعث المأمون بقائده « الأفشين » الذى حاول أن يمهد الأمور ويوطد الأمن ، ولما لم ينجح نجاحا كاملا فى مهمته كتب فى ذلك إلى الخليفة ، وكان حينذاك فى الشام ، فعول المأمون على الحضور بنفسه ، وبلغ مصر كما قدمنا فى ١٧ فبراير ٨٣٠ م .

وكان المأمون يرجو أن يقضى على الثورة باللين ، من أجل ذلك أرسل ينصح الثائرين فى إقليم البرارى بشمالى الدلتا ليدخلوا فى الطاعة ، ويتركوا العصيان ، ولما لم يمتثلوا أمر الخليفة صدر الأمر إلى الأفشين بالتقدم إليهم ، فاتخذ الأفشين مرشدين من أهل البلد ، وشرع يحرق مراكز الثائرين وقراهم ، حتى أحس المأمون أن الأفشين أشتد فى عنفه ، فذهب بنفسه إلى تلك البلاد ، وأمر بوقف القتال ، ونفى بعض الثوار إلى بغداد وغيرها من الجهات النائية .

وفى خلال إقامة المأمون بمصر عمر مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وأصلح الجسر الممتد من تلك الجزيرة إلى اتجاه الفسطاط ،وزار الأهرام، وكان أكثر نزوله بالفسطاط وحلوان وسخا .

ويؤثر أن المأمون جلس يوما بقبة الهواء ، وأشرف على مصر ، وتعجب من حال فراعنتها وقال : لعن الله فرعون ، إذ قال لشعبه : «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » ، فكيف لو رأى العراق

ومروجها ؟ وكان إلى جانبه أحد الشيوخ ، فقال : لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين ، فقد قال تعالى : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ، وماذا عسى أن تكون هذه الأشياء التى دمرها الله إذا كانت بقيتها هذه ؟ .

رحمك الله يا مأمون لقد كنت عظيما ، وكنت عبقريا من عباقرة الإسلام فى العلم والحكم ،والبصر بشئون الرعية.وفى شتى ضروب السياسة ..

وفى يوم السبت أول ربيع الأول عام ٢١٧ هـ ،السادس من أبريل سنة ٨٣٢ م كانت مصر كلها تودع الخليفة المأمون .

****

من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا ، فلينظر إلى أرض مصر ، حين يخضر زرعها ، وتنور ثمارها .

— عبد الله بن صالح العباس —

الأسطول المصرى

فى يوم الإثنين ٢٥ ربيع الثانى عام ٤٨ هـ - ١٣ يونيو ٦٦٨ م ، خرج الأسطول المصرى من الإسكندرية - فى عهد معاوية خليفة المسلمين ، وقسطنطين الرابع امبراطور بيزنطة - فى مائتى سفينة حربية ، بقيادة القائد البحرى العربى عبد الله بن قيس . للقيام بعمليات بحرية فى البحر الأبيض المتوسط على شواطىء جزيرة صقلية ، فودعه والى مصر مسلمة بن مخلد فى الميناء ومعه العلماء والقواد وكبار رجال الدولة وداعا حارا ملؤه الثقة بالفوز والنصر . ووقف الشعب حول الميناء فى مواكب كبيرة ، يودع جيشه البحرى الباسل بالفخر والإعجاب .

وكان الأسطول المصرى إبان ذلك العهد البعيد من أضخم الأساطيل البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن يماثله قوة وعدداً إلا أسطول الشام الذى كونه الخليفة معاوية وغزا به جزيرة قبرص عام ٦٤٧ م ، ثم جزيرة رودس عام ٦٥٢م ، ثم ساحت البحرية العربية فى البحر الأبيض تفتح جزره ، وتحتل موانيه . وكان معظم جند هذا الأسطول من البحارة السوريين والمصريين وكان رؤساؤه من قواد العرب الذين نبغوا فى الأعمال البحرية .

أما الأسطول المصرى فكان من الضخامة بمكان كبير ، وكان الذى بدأ فى إنشائه هو القائد عمرو بن العاص ، ثم جدده وزاد فيه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وحقق به نصراً ضخما فى موقعة ذات الصوارى الخالدة

وبنى عبد الله سفنا جديدة لأسطول الحرب ، وجعل للبحارة غطاء كغطاء الجند . وأنزل الرماة فى الأسطول ، وأخذ هذا الأسطول يحمى شواطىء مصر من غزوات الرومان ، ويقوم بعملياته البحرية على شواطىء جزر البحر الأبيض الخاضعة لحكمهم ، وعلى شواطىء الامبراطورية الرومانية نفسها فى الأناضول .

وكان يماثل هذين الأسطولين أو يزيد عليهما عددا الأسطول الرومانى البيزنطى الذى كان يخرج فى حملات بحرية ضخمة لتهديد شواطىء مصر وشمال أفريقية وجنوب الشام بين الحين والحين ، إلا أنه لم يستطع أن يحرز نصراً بحريا يذكر ، بل إن موقعة ذات الصوارى كانت بداية زوال السيادة الرومانية البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم تستطع بيزنطة أن تسترد سيادتها البحرية بعد ذلك ، وأصبحت أساطيل العرب المسلمين فى الشام ومصر وشواطىء إفريقية هى صاحبة السيادة فى هذا البحر .

وسار الأسطول المصرى فى البحر يتحدى الأسطول الرومانى ، وسار حتى وصل شواطىء صقلية ، وقام فيها بعدة عمليات بحرية كبيرة ، ثم عاد إلى ميناء الإسكندرية بعد أن جنى ثمار الظفر والفوز ، وصار منذ عام ٤٩ هـ - ٦٦٩م يخرج من الميناء بعد الحين والحين ليقوم بمناوراته وعملياته البحرية الرائعة ، فيغزو جنوده ويغنمون ويعودون [١]

---

(١) ٦٣ العرب والروم - طبع دار الفكر العربى .

وفى عام ٨١ هـ - ٧٠٠ م استولى الأسطول المصرى على جزيرة قوصرة - بانتلاريا اليوم - وهى على بعد ستين ميلا من صقلية ، وأربعين ميلا من شواطىء أفريقية ، وصارت تلك الجزيرة هى القنطرة بين شواطىء أفريقية وجزيرة صقلية ، كما اشتركت[١] سفن الأسطول مع الأساطيل البحرية للمسلمين فى حصار القسطنطينية عام ٩٩ هـ .

وظل الأسطول المصرى محتفظا بقوته وهيبته ، وأقيمت دور الصناعة البحرية من أجل الأسطول فى الإسكندرية ودمياط ، وتنيس ، وأشتوم .

وقد زادت عناية حكام مصر بالأسطول المصرى زيادة كبيرة فى القرن الثانى[٢] والثالث الهجرى . ففى القرن الثالث بنيت للأسطول سفن « جالير » وزيد فى مرتبات جنوده ، وأنزل الأمراء الرماة فى الأسطول ، وأخذ الشعب يعلم أطفاله الرمى بالسهام ، ومنع استخدام الجنود البطىء الذكاء والغير المدربين على أعمال الحرب فى الأسطول ، وصار الدخول فى الأسطول من موجبات الاحترام بين الشعب والتقدير من الحكام ، حتى أقبل الناس جميعا على الدخول فيه والاشتراك فى أعماله بأى ثمن ، لما فيه من فرص الدخول فى حرب أعداء الله ، وإعزاز دينه ؛ وصار الأسطول المصرى عظيم الأهمية فى حوض البحر الأبيض[٣] .

---

(١) ٤١ مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لعنان ط ١٣٣٤

(٢) فكان الأسطول المصرى هو العمود الفقرى للأسطول الإسلامى ـ ١٥٧ الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية .

(٣) راجع ص ١٩٢ العرب والروم ، والمواعظ للمقريزى ص ١٩٢ ج ٢ .

وكانت تقام مهرجانات عسكرية لجنود الأسطول يحتفل فيها الشعب بأبطال أسطوله احتفالا كبيراً .

ففى عهد والى مصر عنبسة بن إسحاق الضبى (٢٣٨ - ٢٤٢ ﻫ [١]) استدعى هذا الوالى العربى فى أول ذى الحجة عام ٢٣٩ﻫ - ٣ مايو ٨٥٣م حاميات دمياط والشواطىء البحرية وأغلب جنود الأسطول إلى الفسطاط لإقامة أكبر عرض بحرى فى هذه المدينة [٢] ، بمناسبة عيد الأضحى الكبير وعلم الأسطول الرومانى بذلك من الخونة والجواسيس الذين كانوا منبثين على شواطىء مصر يخبرونه بتحركات الأسطول المصرى أولا بأول .

وسافرت الحاميات العسكرية إلى الفسطاط وبعد ذلك بقليل ، وصل أسطول الروم إلى شواطىء مصر فى ثلثمائة سفينة ،عليها ثلاثة قواد بحريين، كل قائد اعتبر رئيس مائة سفينة ، ونزل القائد الثانى واسمه ابن قطونة بدمياط فى ٩ من ذى الحجة ٢٣٩ ﻫ - ١٢ مايو ٨٥٣ م [٣] ، وكان مع ابن قطونة حين نزل دمياط خمسة آلاف رجل تقريباً حملهم على شلنديات

---

(١) ٩ ج ٢ حسن المحاضرة للسيوطى .

(٢) ١٨٩ العرب والروم ،ويشير إلى ذلك دحلان فى كتابه «الفتوحات الإسلامية» ص ٢١٣ ج ١ .

(٣) راجع الطبرى ج ١١ ص ٤٨ ، وابن الأثير ج ٧ ص ٤٥ ، واليعقوبى ج ٢ ص ٥٩٧ ، دحلان ج ٢ ص ٢١٢ ، وابن قطونه كما تذكره المراجع العربية يرجح أنه هو القائد نكيتيا تيس (هامش ص ١٨٩ العرب والروم) ، وراجع خطط المقريزى في هذه الحملة (ج ٢ ص ١٩٠) ، والامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ٩٢ ، وكانت هذه الحملة البيزنطية فى عهد الإمبراطور البيزنطى باسل الأول مؤسس الأسرة المقدونية (٨٤٢ — ٨٦٧) .

ـ وهى سفن مغطاة بسقوف ـ ففزع أهل المدينة إلى الحرب ، وأبلوا بلاء حسنا فى الدفاع ، ثم أخلوا المدينة وحاولوا عبور البحيرة الفاصلة بين دمياط وبين الأرض من المخاضات ، فهلك كثير من النساء والأطفال أثناء العبور ، وأحرق الروم المدينة المهجورة ، ونهبوها ، واستولوا على السفن التى كانت معدة لإرسالها لوالى كريت العربى أبى حفص ، وأخذوا مؤنا كثيرة كانت معدة لإرسالها إلى عاصمة الخلافة العباسية ، وأحرقوا داراً لصناعة السفن ، والجامع الكبير . واقتاد الروم معهم ستمائة مسلم وقبطى ، وفى أثناء عمليات دمياط كان بسر بن الأكشف محبوسا فى سجن المدينة بأمر عنبسة فكسر قيده ، وخرج يدافع عن المدينة ، وأبلى بلاء حسناً هو والشعب فى هذا الدفاع ، واستولى الروم على الأسلحة المكدسة فى المدينة وحملوا كل مانهبوه فى سفن أسطولهم ، وبعد يومين اثنين رجع الأسطول الرومى محملا بالغنائم والأسرى نحو الشرق ، وقصـــد تنيس الواقعة بين الفرما ودمياط ، ولكن التيار منعه ، وخشى أن توقفه سلاسل الرمال ، فعدل عنها إلى أشتوم غير بعيد من تنيس ، وكانت أشتوم مركزا حربياً حصينا ، فدخل الروم المدينة ، وأحرقوا مصانع الأسطول والسفن المعدة لإنزالها فى البحر ، وحملوا معهم الكثير من ذلك ، وعادوا إلى بلادهم مسرعين ،خوفا من عودة الجيش المصرى وجنود أسطول مصر .

أما قائد الأسطول الثانى ـ وهو الأميرال الرومى أوريفاس ـ وقائد الأسطول الثالث ، فلم يظهر لهما أثر فى هذه اللصوصية البحرية .

وسرعان ما عادت الحاميات المصرية ،وظهر جنود الأسطول المصرى

بعد ذلك بقليل على الشواطىء الرومانية ، يكيلون لهم الضربات ، انتقاما من أعمال السلب واللصوصية التى قام بها أسطولهم ضد المدنيين المسالمين من أبناء الشعب المصرى المجيد .

وقد أسهم هـــذا الأسطول المصرى فى تكوين امبراطورية مصرية ضخمة فى عهد أحمد بن طولون حاكم مصر (٢٥٤ – ٢٧٠هـ) الذى استقل بولاية مصر عن الخلافة العباسية ، وكان يحكم الشـام والعواصم والثغور وافريقية ، وتحولت مصر بفضله من ولاية إلى امبراطورية عظيمة [١] ، وكان جيش ابن طولون يقف عند مدينة طرسوس فى سهل الأناضول ، وأسطول مـــصر يقف قرب أنطاكية التى فتحها ودخلت فى حكمه ، ولا ننسى هذه المعركة التى خاضها « باز مار » عامل طرسوس لابن طولون فى « قلمية » ضد جيش كثيف من الروم يبلغ نحو مائة ألف ، فحصد الجيش المصرى الروم وقتل منهم سبعين ألفا ، وغنم غنائم كثيرة لا حصر لها [٢] ، وذلك عام ٢٧٠ هـ – ٨٨٣ م ، وصار ملك ابن طولون يمتد من نهر الفرات إلى برقة ، ومن جبال طوروس إلى شلال أسوان [٣] ، وذلك كله بفضل أسطول مصر وجيش مصر .

وكانت امبراطورية مصر إبان ذلك العهد مقصد العلماء والأدباء . . وفى الفسطاط ومدن مصر الأخرى يكثر العلماء والحكماء والأدباء والفلاسفة

---

(١) راجع ١١٢ أقباط ومسلمون ، جاك تاجر .

(٢) راجع ص ٢٢٢ ج ١ الفتوحات الإسلامية لابن دحلان .

(٣) ودخلت فى ملك ولاية الحرمين (١٨٨ ج ٢ شفاء الغرام للفاسى) ، كما كانت الاخشيدية تلى كذلك الحرمين (١٩٢ ج ٢ المرجع نفسه) .

والأطباء والمنجمون والرحالة ، مما جعل الفسطاط تحاكى بغداد فى علومها وحكمتها ، روى المسعودى أنه كان بمصر العليا رجل رحالة من الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة ، وكان يشار إليه بالعلم ، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبار ملكها ، وأنه ممن سافر الأرض وتوسط الممالك وشاهد الأمم أبيضها وأسودها ، وأنه ذو معرفة بأنواع هيئات الأفلاك وأحكامها ، فبعث إليه أحمد بن طولون فى سنة نيف وستين ومائتين ، وأخلى له نفسه فى ليال وأيام كثيرة يسمع كلامه وإيراده وحكاياته ، فكان فيما يسأله عن طول الأجناس وممالكهم قال : لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة ، كل منهم ينازع من يليه من الملوك ، وبلادهم حارة يابسة ـ ، قال له ابن طولون : فما منتهى النيل فى أعلاه؟ قال: البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها ، وهى نحو الأرض التى فيها الليل والنهار مستويان طول الدهر ، وهى تحت الموضع الذى يسميه المنجمون الفلك المستقيم ، يريد خط الاستواء [١]

وكان ذو النون المصرى ، قبل ذلك بقليل ، يقيم بآثار مصر وبرابيها[٢] ويقرأ الكتابة المدونة عليها ، واشتهر بذلك ، وتوفى ذوالنون عام ٢٤٥ هـ وكان صوفيا ورعا زاهدا [٣]

---

(١) ص ١٨ كتاب مقدمة النيل السعيد لجلال الدين المحلى طبعة ١٢٨١ هـ بالقاهرة

(٢) يذكر السيوطى أن من عجائب مصر برب اخميم وكان فيه صور الملوك الذين ملكوا مصر ، وكانت جدران دهاليزه منقوشة بعلوم الكيميا والسيمياء والطلسمات والطب ، ويذكر كذلك بربى دندار (٢٨ ج ١ حسن المحاضرة) .

(٣) راجع ترجمتى لذى النون فى كتابى « التراث الروحى للتصوف الاسلامى فى مصر منذ الفتح العربى حتى اليوم » ص ٤٠ ـ ٤٧ ، وكان ميلاد ذى النون عام ١٥٥ هـ .

إلى غير ذلك من مفاخر مصر [1] وجيشها وأسطولها . . .

******

كعب الأحبار : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت ، وإذا اطردت أنهارها ، وتهذبت ثمارها ، وفاض بحرها ، وغنت طيورها .

عبد الله بن عمر : من أراد أن ينظر إلى شبه الفردوس فلينظر إلى مصر حين يخضر زرعها ، ويزهر ربيعها ، ويكثر بالنور أزهارها . .

---

(١) وفى هذا العهد تم زواج قطر الندى بنت خمارويه بن طولون على الخليفة العباسى المعتضد بالله ، ورحلت من مصر فى أواخر عام ٢٨١ هـ : ٨٩٤ م ، فى مهرجان خالد ، وزفت إلى المعتضد فى ربيع الأول عام ٢٨٢ هـ فى بغداد .

موكب المعز فى القاهرة

اليوم هو السابع من رمضان عام ٣٦٢ هـ - الثانى عشر من يونيو عام ٩٧٣ م .

وهو عيد من أعياد مصر الخالدة، التى مرت بها الأحداث والأجيال، وهى صامدة كما تصمد الجبال فى وجوه الأعاصير .

اليوم يذكر بأيام مجيدة خلت ، مرت بمصر ، وتطور بها تاريخ مصر، وتغير بها نظام شعب مصر الحر العزيز الصبور .

اليوم مهرجان لم تر مثله عين الزمان ، فالجيش الفاطمي الضخم بعتاده وعدده يتحرك منذ الفجر من الفسطاط إلى الجيزة .

وشعب مصر يخرج من القاهرة المعزية ، ومن الفسطاط إلى مدينة الجيزة .

وها هم أولاء أعيان الفسطاط وعلماؤها وأشرافها يخفون لاستقبال الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى الجيزة . . ومدن مصر : الفسطاط والقطائع والقاهرة ، استعدت ثلاثتها لاستقبال العاهل العظيم .

ووصل المعز من الإسكندرية ، فتعالى الهتاف والتكبير ، وتقدم الجيش يحييه التحية العسكرية المفروضة ، وجاء علماء مصر وأشرافها وكبار الرأي فيها ، ورجال الدولة ، ووجهاؤها ، يحيون المعز ويصافحونه ويرحبون بمقدمه، والشعب خلف هؤلاء جميعا يهتف للمعز ، ولآل البيت، مكبرا مهللا ..

ونحرت الذبائح ، وسار المعز فى موكبه من الجيزة ؛ ثم جاز النيل إلى الشاطىء الشرقى ، وسار تجاه الفسطاط ، وتقدم إليه أشراف المدينة يرجون أن يدخل المعز مدينتهم ، ليشرف الشعب فيها بلقائه ، وليرحب بمقدمه ، فأبى المعز أن يدخل الفسطاط ، وجعلها ظهره ، وأمر موكبه بالاتجاه إلى عاصمته « المنصورية » التى صدر أمر المعز فى ذلك الحين بأن تسمى « القاهرة المعزية » .

ودخل المعز القاهرة ، المدينة التى ازينت أجمل زينة لقدوم بانيها ، وعاهلها الفاطمى العظيم . . إن قصورها ومتنزهاتها ، ومساجدها ، والمسجد الجامع الأزهر فيها ، وكل شوارعها وطرقاتها ، ترحب بمقدم المعز ، وفنادقها مزدحمة ، وحوانيتها تشرق بالأنوار .

وتقدم الخليفة إلى قصره المعمور الشرقى ، وهو فى ملابسه التى تبهر الأنظار ، وحوله الأمراء والحاشية وكبار رجال الدولة ، فى ملابس مزركشة من الحرير والديباج ، موشاة بالذهب الخالص ؛ وفتحت أبواب القصر ترحب بالعاهل العظيم ، وسار الخليفة إلى « قاعة الذهب » وجلس خلف سترين حريريين ، وما لبث أن انفرجا بفعل اثنين من الأساتذة ، بأمر من رئيس القصر المعروف باسم « زمام القصر » ، فظهر شخص الخليفة محاطا بهالة من نور ومجد ، وحوله جماعة من القراء ، يرتلون آيات من الذكر الحكيم ؛ وأخذ زمام القصر ، وصاحب بيت المال ، والحجاب ، والأمناء أمكنتهم عند الأبواب ، والشعب خلف سور القصر يضج بالتكبير والتهليل ، محييا المعز ، ومهنئا له بقدومه السعيد .

وجلس رجالات مصر وعظماؤها وعلماؤها وأدباؤها وقواد جيش المعز فى القاعة ، بعد أن قدمهم أحد الأمناء إلى الخليفة ؛ وكان فى مقدمة الحافين من حوله : أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى ، وأبو إسماعيل ابراهيم بن أحمد الحسينى الرسى ، وأحد أبناء الشريف أبى محمد عبد الله ابن أحمد بن على بن الحسن بن ابراهيم بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ؛ وهم زعماء العلويين فى مصر ؛ وسل المعز أمام هؤلاء جميعا سيفه ، وقال : هذا نسبى ، ثم نثر عليهم ذهبا كثيرا ، وقال : هذا حسبى .

واستقر المعز فى عاصمة ملكه الجديدة « القاهرة » ، وكان قد خرج يقصدها من المنصورية فى دار ملكه فى تونس ، يوم الاثنين ٢١ شوال عام ٣٦١ هـ - ٦ أغسطس عام ٩٧٢ م ؛ ودخل الإسكندرية يوم السبت ٢٥ شعبان عام ٣٦٢هـ - أول يونيو ٩٧٣ م ؛ وكان المعز من قبل قد عزم على فتح مصر واتخاذها عاصمة ملكه بعد أن استولى على ليبيا وباقى بلاد المغرب العربى « الجزائر ومراكش » ، فبعث بجوهر قائده فى مائة ألف لفتح مصر ، ورحل جوهر من القيروان فى تونس إلى مصر فى يوم السبت ١٤ ربيع الثانى عام ٣٥٨ هـ - ٩ فبراير ٩٦٩ م ، فخرج الخليفة لتوديعه بنفسه ، وقال : « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن إليها من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ، ويبنى مدينة تقهر الدنيا » . ووصل جوهر إلى برقة ، ومنها سار حتى دخل الإسكندرية فى رجب عام ٣٥٨ هـ ، ثم استمر فى سيره فدخل مصر وقت الزوال من يوم الثلاثاء ١٦ شعبان

عام ٣٥٨ هـ - ٢ أغسطس ٩٦٩ م ، بناء على صلح عقد بين المصريين والفاطميين ، وأزال الحكم الأخشيدى من مصر ، وسلم له ملك مصر أبو الفوارس أحمد ابن على بن الأخشيد شئون البلاد ، بعد أن حكمت أسرته خمسة وثلاثين عاما (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ : ٩٣٥ - ٩٦٩م) ،وجاء فى وثيقة الصلح الرسمية التى وقعها جوهر أنه « يتعهد بنشر العدل . وبسط الحق .وحسم الظلم . وقطع العدوان . ونفى الأذى . ورفع الحزن . والقيام فى الحق . وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والإحسان . وجميل النظر . وكرم الصحبة . ولطف العشرة . وافتقاد الأحوال . وحيطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم » .

وخطب للمعز فى جامع عمرو فى التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨هـ - ٩٦٩ م ، وكان ذكر المعز فى خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسى حدثا تاريخيا جليلا . وفى يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ صلى جوهر بجامع ابن طولون ، وأذن المؤذنون : « حى على العمل » .

وكان جوهر قد وضع أساس مدينة جديدة سميت القاهرة « المعزية » فى ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ - ٣ يوليو عام ٩٦٩ م ، وأقام فيها قصرا ضخما للخليفة ، وأحاطها بسور كبير ، واتخذ بولاق ميناء لها [١] ، وجعل جوهر للقاهرة عدة أبواب ، منها : باب زويلة. باب النصر . باب الفتوح... ثم وضع جوهر الحجر الأساسى للجامع الأزهر فى يوم السبت ٢٢ جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ - ٣ أبريل ٩٧٠ م ، وكمل بناؤه يوم السبت ٧ رمضان

(١) تحولت بولاق الى مدينة تجارية كبيرة منذ سنة ٧١٣هـ ، عندما أمر الملك الناصر بعمارتها وبنى بها الدور على شاطىء النيل ، فسكنها الناس وعمروها .

عام ٣٦١ هـ — ٢٣ يونيو ٩٧٢ م ، الذى تحول إلى جامعة دينية كبرى ، كان ولا يزال لها أثرها على مصر والعالم الإسلامى .

ولما دخل المعز القاهرة بدأ فوضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين : أحدهما مصرى والآخر مغربى ، ووسع ملكه ، فأضاف إليه جنوب الشام وطرد منه الحسن الأخشيد ، وخطب له الحمدانيون فى شمال الشام ، وصارت لمصر السيادة على الحجاز [1] والشام وبلاد النوبة وبلاد المغرب نفسها . إذ صارت مركز دولة الفاطميين وقلبها النابض ، ومنها تصدر الأوامر إلى أنحاء الدولة ، وتدار شئونها ، ومنها يذهب الحكام لبقية البلاد . وبنى المعز أسطولا ضخما ، فأقام حوضا فى المقس [2] ، وبنى به ٦٠٠ سفينة ، وعنى بالرى والزراعة والصناعة ، عنايته بالجيش وأسلحته الحربية .

وحكم المعز دولته حتى توفى يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى عام ٣٦٥ هـ ١٨ ديسمبر عام ٩٧٥ م ، وترك دولة ضخمة تمتد من الشام إلى المحيط الأطلسى . وتطمح فى الاستيلاء على بغداد نفسها ، كما يقول الأمير تميم بن المعز الفاطمى فى بغداد :

---

(١) راجع ص ١٩٤ وما بعدها ج ٢ شفاء الغرام للفاسى .

(٢) كانت المقس ثغر القاهرة قبل بولاق ، وموضعها الآن يقرب من امتداد شارع الجمهورية

وقريب أن يزورك بى ظفر ما مثله ظفر
ثم يصفو فى ذراك لنا طيب عيش ما به كدر

✲✲✲✲

وفى قصر الخلافة المعزية يقول تميم على لسان القصر :

إن يحمد الصبح إشراقى فمعذور
بى تشرق الشمس والأفلاك والنور

الخليفة فى استقبال عالم فى القاهرة

الخليفة الفاطمى العظيم الحاكم بأمر الله أبو على منصور (٣٧٦-٤١١هـ : ٩٩٦ - ١٠٢١ م) مؤسس دار الحكمة . والذى اشتهر بتشجيعه للعلوم والفلك والفلسفة ، يقف مع حاشيته وكبار رجال دولته ، عند قرية على باب القاهرة المعزية ، كانت تعرف بالخندق ، ليستقبل العالم المهندس البصرى الحسن بن الحسن بن الهيثم ، ساعة قدومه من السفر إلى القاهرة .

وظل الخليفة ينتظر حتى وصل ابن الهيثم ، فى جبته الواسعة ، وعمامته الكبيرة ، فاستقبله استقبالا جليلا ، ورحب به ترحيبا ودياً بالغا .

إن من شأن الحكام فى القديم والحديث أن يستقبلوا العلماء فى قصورهم ، ولكن الحاكم خرج بنفسه ، ليستقبل ابن الهيثم خارج أبواب القاهرة ، ومعه حاشيته ورجال دولته .

وسار الخليفة بالحسن بن الهيثم إلى القاهرة ، وأمر بأن ينزل فى ضيافته ، وبإكرامه (١) .

وكان ابن الهيثم فى هذا الحين أشهر عالم رياضى شهدته مصر الفاطمية ، وقد سمع به الحاكم . روى له أن ابن الهيثم يقول : « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى » .

---

(١) ١١٤ و ١١٥ أخبار العلماء للقفطى .

فازداد الحاكم إليه شوقا . وكان ابن الهيثم آنذاك فى كنف أمير من أمراء الشام يعيش فى إمارته ، ويروى أن هذا الأمير أغدق عليه نعمه وعطاياه ، ولكن ابن الهيثم كان يقول للأمير : « يكفيني قوت يومى ، وتكفيني جارية وخادم ، فما زاد على قوت يومى إن أمسكته كنت خازنك ، وإن أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك ، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذى يشتغل بأمرى وعلمى » ؛ وما قبل منه إلا نفقة احتاج إليها ، ولباسا متوسطا ، ويروى أن بعض الأمراء جاءه يطلب العلم عليه ، فطلب منه ابن الهيثم أجرة للتعليم ، مائة دينار فى كل شهر فبذل ذلك الأمير ، وأقام ثلاث سنوات عند ابن الهيثم يأخذ عنه العلم . فلما عزم على الانصراف إلى دياره ، قال له ابن الهيثم : « خذ أموالك بأسرها فلا حاجة لى إليها ، وأنت أحوج إليها منى عند عودتك إلى بلادك ومسقط رأسك ، وإنى قد جربتك بهذه الأجرة ، فلما علمت أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك فى طلب العلم ، بذلت مجهودى فى تعليمك وإرشادك » ثم ودعه وانصرف (١)

وظل ابن الهيثم مقيما بالشام حتى قدم القاهرة واستقبله الحاكم مرحباً . وأقام ابن الهيثم فى القاهرة ريثما استراح ، ثم طلب منه الحاكم أن يعمل ما يشاء فى النيل ، حتى يعم النفع بمائه ، فسار الحسن إلى أسوان ، ومعه جماعة من المهندسين والصناع المتولين للعمارة ، ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له ، ولما سار إلى الإقليم بطوله ، ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهى على غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة ، رأى فى نفسه

(١) تاريخ حكماء الاسلام للبيهقى — مخطوطة دار الكتب ص ٥١

أن الذى يقصده ليس بممكن ، فإن السابقين لم يغب عنهم علم ما علمه ، ولو أمكن لفعلوا ، ووصل إلى منطقة الشلالات قبلى أسوان ، فعاينها واختبرها من الجانبين ، فوجد أمره لا يمشى على موافقة مراده ، فعاد ، واعتذر للحاكم ، فقبل عذره (١)

وولاه الحاكم بعض الدواوين فى القاهرة فتولاها إشفاقاً من غضب الخليفة ، ثم أراد ترك العمل الرسمى فادعى أنه لا يصلح للوظائف ، وتظاهر بالخبل والجنون ، فحجر عليه الحاكم ، ووكل به من يخدمه ويقوم بمصالحه ، وقيد وترك فى موضع من منزله ، ولم يزل على ذلك حتى توفى الحاكم ، فعاد ابن الهيثم سيرته الأولى ، وخرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر فأقام بها مفيدا متنسكا زاهدا عابداً ، وأعيد إليه ماله ، واشتغل بالتأليف والبحث (١)

هذا هو ابن الهيثم الذى استقبله الحاكم وعاش فى دولته وفى خلافة ابنه الظاهر بعده (٤١١ -٤٢٧هـ) ، وشاهد زمنا من خلافة المستنصر الذى حكم مصر ستين عاما ، حتى توفى بالقاهرة عام ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م عن نيف وسبعين سنة قضاها فى البحث والابتكار ، إذ كان مولده بالبصرة عام ٣٥٥هـ-٩٦٥م (٢)

ولابن الهيثم تآليف فى الهندسة والفلك والرياضة والفلسفة كثيرة (٣) ، ويصفه البيهقى بالحكيم ويعده بطليموس الثانى ، ويذكر ابن أبى أصيبعة

---

(١) صـ ١١٥ القفطى ، و ٩٠ جـ ٢ ابن أبى أصيبعة

(٢) راجع ٩٣ – ٩٥ ج ١ قصة الأدب فى مصر لخفاجى ، و ٧٨ – ٨٢ أدب مصر الفاطمية

(٣) صـ ١١٦ القفطى

أن ابن الهيثم كان متقدما فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه [١] ، ويصفه مستشرق بأنه أعظم الرياضيين والطبيعيين فى العصور الوسطى [٢] : ويقول عنه مصطفى نظيف العالم المصرى: إنه أنشأ علم الضوء الحديث كما هو الآن ، ويعده رضا مدور فى مرتبة انيشتين ، وهكذا وضعه فى القمة الدكتور مشرفة [٣] . وكان من تلاميذ ابن الهيثم مبشر بن فاتك [٤] الفيلسوف الرياضى [٥]

كان من [٦] عباقرة العرب ، وصاحب آثار خالدة فى الطبيعة والرياضيات ، وقد وصل علم البصريات إلى أعلى درجة بفضله ، وقد أخذ « كبلر » معلوماته فى الضوء وانكساره من كتب ابن الهيثم ، ويعد أعظم الباحثين عند العرب فى علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة فى العصور الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله ، وقد بقيت كتبه منهلا ينهل منه علماء أوربا ، كباكون وكبلر ؛ وسحرت بحوثه فى الضوء

(١) ج ٢ ص ٩٠ ابن أبى أصيبعة

(٢) ص ١٩٠ تاريخ الفلسفة فى الاسلام لدى بور ترجمة ابو ريدة

(٣) راجع كتاب الاجتماع التخليدى لذكرى ابن الهيثم ص ٢٧ ، ٣١ و ٤٠

(٤) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ١٩٤

(٥) راجع عن ابن الهيثم : ١٧٦ و ١٧٧ ابن القفطى ، ٨٢ أدب مصر الفاطمية ، ١٩٤ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ٩٠ ج ٢ ابن أبى أصيبعة ، وص ٧٧ الرسالة المصرية لابن أبى الصلت ، مخطوطة دار الكتب ، ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٧٧ .

(٦) راجع ص ١٥٨ وما بعدها العلوم عند العرب لقدرى طوقان ، وكتاب الحسن بن الهيثم لمصطفى نظيف .

« ماكس مايرهوف » حتى قال : إن عظمة الابتكار الإسلامى تتجلى لنا فى البصريات ، وكتاب المناظر لابن الهيثم أرفع كتب علم الضوء قدرا ، ويتفوق عليهافى موضوع انكسار الضوء ، وتشريح العين ، وكيفية تكوين الصور على شبكية العين ؛ إن علم البصريات خرج كاملا بفضل ابن الهيثم ، وقد سار فيه المؤلف على الطريقة العلمية الحديثة، وإن أثر ابن الهيثم فى الضوء لا يقل عن أثر نيوتن فى الميكانيكا ، ولابن الهيثم بحوث جديدة فى الهندسة والفلك ؛ وابن الهيثم أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام ، وبين كيف تنظر إلى الأشياء بالعينين معاً فى آن واحد ، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئى إلى العينين (١) .

إن الحسن بن الهيثم لم يعرف قدره فى عصره إلا القليلون . وفى مقدمتهم الحاكم ، وكان الحاكم عالما فيلسوفا واسع الثقافة ، ومن آثاره : دار الحكمة التى بناها عام ٣٩٤ هـ - ١٠٠٤ م ، ودار العلم ، وكانت فيها الكتب فى سائر العلوم والآداب مما لم ير مثله فى دولة خليفة ، وأباح الاطلاع فيها للجماهير ، فجلس فيها القراء والمنجمون والأطباء وسواهم ، حتى صارت مكتبة عامة على أرفع نمط ، وكان الحاكم كثيراً ما يستدعى جماعات من دار العلم من الأطباء والرياضيين وعلماء المنطق والفقهاء للمناظرة بين يديه .

وكانت الفسطاط والقاهرة فى عصر الحاكم من أعظم مراكز الثقافة فى العالم . وفاقت القاهرة غيرها من مدن العالم الإسلامى فى العظمة والعمران .

---

(١) ٤٢ — ٤٤ العلوم عند العرب بطوقان — نشر مكتبة مصر .

نيرون يأمر بحرق العاصمة

الفسطاط إحدى عواصم مصر الكبرى :

كانت مدينة الفسطاط فى العصر الفاطمى إحدى العاصمتين الكبيرتين فى مصر ؛ وكانت مركزاً ثقافياً ضخما ، وفيها شتى ألوان الحضارة ؛ وكانت القاهرة بجوارها مركزاً للملك ، ومقراً للخلفاء الفاطميين .

إحراق الفسطاط مرتين :

ولقد أحرقت الفسطاط مرتين فى العصر الفاطمى ، بأمر من حكام مصر فى ذلك الزمن البعيد .

إن نيرون أمر بحرق الفسطاط العاصمة العربية الثقافية الكبرى لمصر مرتين خلال حكم الفاطميين .

الحاكم الديكتاتور المستبد :

ونيرون الذى أحرقها أول مرة هو الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ — ٤١١ هـ : ٩٩٦ — ١٠٢١ م) ، ابن العزيز بأمر الله (٣٦٦ — ٣٨٦ هـ) ، ابن المعز الفاطمى .

ولى الحاكم ملك مصر وسنه إحدى عشرة سنة ، ومع ثقافته العالية ، وحبه للعلم والحكمة والفلسفة ، وتقريبه للعلماء ، إلا أنه كان يحب أن يحكم

شعبه حكما ديكتاتورياً محضاً ، مما أدى إلى ثورة الشعب المصرى عليه مرتين . . .

الثورة الشعبية الأولى :

قامت الثورة الأولى عام ٣٩٠ هـ : ١٠٠٠م حين أكثر الملك الشاب من سياسة سفك الدماء ، واغتيال رجال الدولة ، فاغتال ابن عمار قائد جيش الخلافة الفاطمية ، ثم اغتال « برجوان » الذى كان وصياً على الحاكم فى مطلع ولايته لأمور مصر ، واغتال غيرهما من رجال الدولة . مما أقلق الشعب وأضجره وحمله على التوجه إلى مقر الخلافة ، ولم يستطع الحاكم الإفلات من ثورة شعبه إلا بالبكاء والعويل والاعتذار بتوليه الحكم شابا ، وعدم تجاربه الكثيرة فى الحكم .

الثورة الشعبية الثانية :

وكانت الثورة الشعبية الثانية على الحاكم فى ٢٩ شعبان ٤٠٨ — ٢٠ يناير عام ١٠١٨ م ، وكان سببها تمادى الحاكم فى ديكتاتوريته ، وإسرافه فى مهاجمة الحريات ، ومصادرة الحقوق . إلى ما شاع فى الشعب ، وألصق بالحاكم إن صدقا وإن كذباً : من ادعائه الألوهية[1]، يقول بعض الكتاب : « لما اخذ الحاكم يبشر بألوهيته عام ٤٠٨ هـ غضب الشعب وعاد يهاجم قصر

(١) ص ١٢٧ جاك تاجر — أقباط ومسلمون .

الخلافة ، فانتقم الحاكم لذلك بإحراقه العاصمة[١] » ؛ وكان الحاكم على ما قيل على قسط كبير من الشذوذ العقلى ، اغتال قائده ابن عمار ، ثم اغتال أستاذه والوصى عليه بيرجوان ، وأمر بسب أصحاب رسول الله ، وأمر بإغلاق الحوانيت نهاراً وفتحها ليلا ، وحرم صنع أحذية النساء حتى لا يستطعن الخروج من منازلهن ، وقطع الكروم، ومنع الناس من أكل الزبيب والعسل والملوخية ، ثم ادعى الألوهية ، وأغراه بذلك « الدرزى » الذى أسس مذهب الدروز فى لبنان ، وقد أثارت دعوته هذه ثائرة الشعب ، ووقعت البلاد في محن كثيرة ، ووقف دولاب العمل في كل مكان ، وخرج عليه الجند الترك والمغاربة ، ولذلك أعلن الشعب الثورة ، وعاد يهاجم القصر ، ويطلب أن يسلم الحاكم « الدرزى » ليتولى الشعب إعدامه ؛ إن دعوى الحاكم الألوهية هى السبب المباشر للثورة ، ولكن السبب الجوهرى لها هو ديكتاتورية الحاكم وعسفه ، ونحن لا نعقل أن يدعى الحاكم الألوهية[٢] ، وقد يكون ادعاؤه بأنه إله نتيجة للمذهب الشيعى الإسماعيلى الذى قامت الدولة على أساسه ، لا مظهراً من مظاهر الجنون[٣] ، ويقول السيوطى :

---

(١) وقد مهد لهذه الثورة الشعبية ضد الحاكم المنشور الرسمى الذي أصدرته الخلافة العباسية فى بغداد فى ربيع الثانى عام ٤٠٢ هـ — نوفمبر ١٠١١ م بأن الفاطميين فى مصر أدعياء خوارج، لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب ، وأن الحاكم وسلفه معطلون جاحدون لعنوا السلف ، وادعوا الربوبية ، واعتقدوا مذهب الثنوية والمجوسية . . وبسبب هذا المنشور قامت ثورة أبى ركوة على الحاكم عام ٤٥٣ هـ .

(٢) على أن الخلافة العباسية ألصقت هذه التهمة بجميع الخلفاء الفاطميين فى المنشور السابق

(٣) صـ ١٣٢ كتاب جاك تاجر

« رام الحاكم أن يدعى الألوهية ، فأمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفا إعظاما لذكره ، واحتراماً لاسمه ، فكان يفعل ذلك فى أنحاء مملكته حتى فى الحرمين الشريفين ، وكان أهل مصر إذا قاموا أتبعوا ذلك بالسجود وخاصة الرعاع[1] » ، ويستمر السيوطى فى الحديث عن الحاكم فيقول : « وابتنى الحاكم المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها . »

الحاكم يأمر بحرق الفسطاط :

أبغض[2] الخلق الحاكم وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولأسلافه ، فى صورة قصص ، حتي عملوا صورة امرأة من ورق وفى يدها قصة فيها سب كثير ، فلما رآها ظنها امرأة فتقدم إليها وأخذ القصة من يدها ، فلما قرأ ما فيها غضب وأمر بقتلها ، فلما تحققها من ورق ازداد غضباً ، وأمر العبيد من السودان أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم[3] ، ففعلوا ، وقاتلهم أهل مصر قتالا عظيما ثلاثة أيام ، والنار تعمل فى الدور ، واجتمع الناس فى المساجد ، ورفعوا المصاحف مستغيثين بالله ، ولم تنته المأساة حتى احترق من مصر نحو ثلثها ، ونهب نحو نصفها[4]

---

(١) ١٣ ج ٢ حسن المحاضرة .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) راجع مصر فى ظلال الحكم الاسلامى — محمد فخر الدين ص ٤٥

(٤) ولم ينقذ الفسطاط إلا عطف الجنود الأتراك على الفسطاط وكثرة ما لهم فيها من أموال ومن لهم فيها من أصهار وأولاد (المرجع السابق) .

كانت هذه الثورة الشعبية الجامحة صادرة من الفسطاط موطن المعارضة للحكم الفاطمى ، وكان الثائرون هم أبناء الفسطاط ، لذلك أحرق الحاكم بلدهم ؛ أما القاهرة فكانت مقر جيش الخلافة ودواوين الدولة ، وكانت محاطة من كل جانب بالحصون ، وكانت فيها قصور الخلافة ومكتباتها وكنوزها ، مما يجعلنا نؤكد أن الحاكم إنما أمر بحرق الفسطاط لا القاهرة ، إذ أن القاهرة لا يطلق عليها اسم « مصر » ، إنما الفسطاط هى التى يطلق عليها ذلك ، وقد أخطأ بعض الباحثين فظنوا أن الذى أحرق هو القاهرة ، ومن بينهم جاك تاجر فى كتابه ، ولو كان الذى أحرق هو القاهرة لقال السيوطى : أمرهم أن يحرقوا القاهرة بدل قوله « أن يحرقوا مصر » ، وهناك نص يؤكد أن لفظ « مصر » كان يطلق على الفسطاط لا على القاهرة، هو قول ابن حجر فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » [1] : « كان القاضى النعمان يسكن مصر ـ أى الفسطاط ـ ويغدو منها إلى القاهرة فى كل يوم » .

إن الحاكم ـ من أجل أن يتخلص من ثورة شعب مصر وأهل الفسطاط عليه ـ أمر فى ٥ رمضان ٤٠٨هـ ، ٢٦ يناير عام ١٠١٨م، أى منذ نحو تسعة قرون ونصف ، بحرق الفسطاط إحدى عاصمتى مصر الجميلتين ، وأحرقت المدينة واستمر الحريق فيها ثلاثة أيام حتى انتهت الثورة ، وهدأ الحريق ، واحترق من الفسطاط نحو ثلثها ، ثلث العاصمة الجميلة القديمة ، ونهبت المدينة ، والحاكم يتفرج على النيران تلتهم المدينة الكبرى ، مدينة مصر وعاصمتها الأولى : الفسطاط .

---

(١) نسخة خطية رقم ١٠٥ بدار الكتب المصرية ص ١٣٦ ب .

وكانت النتيجة الحتمية لإحراق العاصمة ولثورة شعبها هى قتل الحاكم فى شوال عام ٤١١ هـ - فبراير ١٠٢١ م ، ركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر فى النجوم ، فأتاه عبدان فقتلاه وحملاه إلى أخته « ست الملك » ليلا ، فدفنته فى دارها [١] .

بعد الحاكم :

وتوالى على حكم مصر بعد الحاكم الخلفاء : الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ)، والمستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) . والمستعلى (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، ثم الآمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، والحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ، والظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) ، والفائز (٥٤٩ - صفر ٥٥٥ هـ) ، ثم العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) ، وهو آخر الخلفاء الفاطميين [٢] ، وفى عهد العاضد أحرقت الفسطاط للمرة الثانية حريقا محا المدينة كلها من الوجود .

أحداث :

كانت مصر فى آخر عهد الخلافة الفاطمية نهباً للنزاع الشديد بين الوزراء ، كما كانت من قبل نهباً للمجاعة وللنزاع المستمر بين جند الأتراك وجند السودان ، وهما من أهم الجند فى جيش الخلافة الفاطمية .

وفى عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين صارت مهددة بالغزو الصليبى لها كل ساعة .

---

(١) ١٤ : ٢ حسن المحاضرة — وراجع ص ٥٠ مصر فى خلال الحكم الاسلامى .

(٢) راجع ١٤ — ١٧ : ٢ حسن المحاضرة .

وكان الأمر فى خلافة العاضد بيد الوزيرين : ضرغام وشاور ؛ إلا أن الخلاف دب بينهما حتى صار على أشده، فاستعان شاور بسلطان حلب، السلطان نور الدين محمود زنكى ، واستعان ضرغام بأمورى الصليبى ملك بيت المقدس ؛ ودخل جيش نور الدين فى آخر جمادى الآخرة عام ٥٥٩هـ ، ٢٤ مايو ١١٦٤ م ، بقيادة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى ، مدينة الفسطاط ، بعد معارك شديدة انتصر فيها على ضرغام وحلفائه من الصليبيين ؛ وقتل ضرغام ، وعاد شاور إلى الحكم من جديد .

إلا أن شاور طالب الجيوش الأجنبية بالجلاء عن مصر ، ومنها جيش نور الدين ، واشتبك شاور مع جيش نور الدين فى وقائع حربية ، احترق فيها وجه الخليج خارج القاهرة وقطعة من حارة زويلة كذلك ، وعاد شاور يتآمر مع الصليبيين على جيش نور الدين .

ثم تقدم أسد الدين لملاقاة جيش صليبى قادم إلى مصر ، وعسكر فى بلبيس ، وقاوم فيها مقاومة باسلة ثلاثة أشهر كاملة ، وهدد نور الدين إمارات الصليبيين فى الشام بجيوش بعث بها من حلب ودمشق ، فغادر الصليبيون مصر مسرعين ، وغادرها كذلك أسد الدين وجيشه ، وتم الجلاء عن مصر فى ذى الحجة عام ٥٥٩ هـ .

وفى أول ربيع الثانى ٥٦٢ هـ دخلت أرض مصر جيوش جديدة بعث بها نور الدين ليرد على مؤامرة صليبية لغزو مصر ، ووصلت الجيوش أطفيح فى سادس ربيع الآخر عام ٥٦٢ هـ ، وعبرت منها إلى الجانب الغربى ، وعسكرت فى الجيزة بمحاذاة الفسطاط ، وعاد شاور فطلب إلى الصليبيين

دخول مصر لطرد جيش نور الدين الذى كان يقوده أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ؛ فدخل الصليبيون مصر ، واحتلوا مديرية الشرقية والغربية ، والتقى بهم أسد الدين فى معركة عند قرية البابين [1] ، فانتصر عليهم انتصارا مبينا ، وذهب أسد الدين إلى الإسكندرية فاستقبله الشعب المصرى فيها استقبال الأبطال ، وكذلك استقبلته مدن الصعيد استقبالا حماسياً ، وانتهى الأمر بالهدنة وجلاء الجيوش الأجنبية عن أرض الوطن فى ذى القعدة عام ٥٦٢ هـ .

ثورة الفساط على الحكم الفاطمى :

ومع جيوش الفاطميين الجرارة المستعدة للحرب ، أعلن الشعب المصرى فى الفسطاط الثورة ضد حكامه ، الذين تآمروا مع الصليبيين عليه ، وحالفوهم عن غير مصلحة وطنية أو قومية تستدعى ذلك .

وكانت الفسطاط دائما مركز المعارضة للخلافة الفاطمية ، ولم يضعف فيها سلطان عقيدة أهل السنة والجماعة ، وكذلك كانت الاسكندرية وبلاد الصعيد ؛ كانت هذه الأقاليم المصرية المتحررة صادقة الهوى نحو نور الدين وقائدى جيشه : شيركوه وصلاح الدين الأيوبى ؛ وإزاء ذلك ، قرر نيرون حرق الفسطاط .

إحراق الفسطاط لثانى مرة :

قرر شاور انتقاما من المدينة الثائرة ، إحراق الفسطاط ، نعم قرر شاور وحكام الفاطميين أن ينتقموا لهزيمتهم المتوقعة أمام ثورة الشعب

---

(١) تقع جنوب المنيا بعشرة أميال .

المصرى الباسل ، بإحراق هـذه المدينة ، مدينة المجد والتاريخ والذكريات الخالدة ، وأن تمحى من الوجود ، بعد أن عاشت نحو خمسة قرون مركزا أصيلا من مراكز العروبة والإسلام والثقافة والحضارة .

إن الخائنين بدأوا يشعلون النار فى مدينة مصر الكبرى ، مدينة عمرو ابن العاص الإسلامية التليدة ، فى عام ٥٦٤ هـ - ١١٦٨ م .

عظمة المدينة المنكوبة :

وكانت الفسطاط آنذاك ومنذ إنشائها عام ٢١ هـ - ٦٤١ م عاصمة مصر الأدبية [١] والثقافية والفكرية ، وكانت من أعمر الأمصار الإسلامية وأغناها وأكثرها رخاء ، فيها ستة وثلاثون ألـف مسجد ، وألف ومائة وسبعون حماما ، وثمانية آلاف شارع ، وكانت أسواقها عامرة بشتى مطالب الحياة والحضارة ، ومنازلها شاهقة ، وفيها من المدارس وحلقات العلم مالا يحصى كثرة ، وكان جامع عمرو مثابة العلماء ، ومباءة التدريس والتحديث من عهـد الصحابة والتابعين والأئمة الخالدين ، من أمثال : الليث بن سعد . ومحمد بن إدريس الشافعى ، والبويطى ، وسواهم ؛ وكانت مكتبات المدينة حافلة بملايين الكتب الإسلامية المخطوطة .

إن المدينة التى كانت مركز المقاومة للفاطميين أمروا بإحراقها ، بحجة أنهم مضطرون إلى ذلك ، خوفا من وقوعها فى أيدى الصليبيين .

---

(١) راجع ٣٠ و ١١٢ ج ١ ، و ٢٠٤ ج ٢ قصة الأدب فى مصر للمؤلف .

مصرع المدينة الجيدة :

وفى ١٥ أكتوبر ١١٦٨ م — ١٠ المحرم ٥٦٤ هـ أمر أهل الفسطاط بالخروج السريع من بيوتهم ، وأن ينتقلوا إلى القاهرة ، لاضطرار الدولة إلى إحراقها خوفا من استيلاء الصليبيين عليها ، هذا فى الوقت الذى كانوا حلفاء الافرنج فيه ، وهم الذين كانوا يستدعونهم مرة بعد أخرى ، على أن الافرنج إنما كانت تهمهم القاهرة لا الفسطاط ، فكان من المعقول أن تحرق القاهرة لا الفسطاط ، ولكن الفسطاط كانت تمثل تراث أصحاب رسول الله والأئمة المقتدى بهم ، والقاهرة كانت تمثل إسماعيلية الفاطميين ودعاتهم [1] .

وظلت النار مشتعلة فى الفسطاط تلتهم الأخضر واليابس ، وتبتلع ألوف الشوارع وما يتفرع فيها من دروب وأزقة وحارات وما يقوم بينها من عشرات ألوف المساجد وعشرات ألوف المكتبات الحافلة بأنفس المخطوطات فى العلوم الإسلامية ، ونهبت المدينة ، وذهب للناس أموال كثيرة [2] ، وقد أعجلوا الناس عن نقل شىء من مدخرات هذه المدينة الإسلامية التى حفلت بتراث مصر الإسلامية خمسة قرون ونصف . كان يتوارث فيها الأبناء عن الأجداد كل ما تعتز به أمة إسلامية من مصاحف

---

(١) راجع مجلة الأزهر عام ١٣٧٣ هـ ـ مقالة «من هم العبيديون» بقلم محب الدين الخطيب ص ٦١٢ ، و ١٨ : ٢ حسن المحاضرة .

(٢) ١٨ : ٢ حسن المحاضرة .

وكتب ومبان أثرية ، وزخارف يضن الزمان [١] بمثلها ؛ واستمر الحريق أربعة وخمسين يوما بلياليها حتى أحال المدينة العريقة إلى أطلال دارسة لايتبين أحد معالمها ولا يستبق منها إنسان إلا ذكريات للمجد الدارس ، والعز المحطم [٢] .

التاريخ يعيد نفسه :

وهكذا ما أشبه الليلة بالبارحة ، ما أشبه يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ بيوميه السالفين : ٢٦ يناير عام ١٠١٨ م ، و ٥ أكتوبر ١١٦٨ م

ففى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، رأى الملك فاروق بن فؤاد بن اسماعيل ثورة شعبية حقيقية تهدف إلى طرده هو وأسرته من الحكم ، فى ذلك التاريخ كان الانجليز قد أبادوا قوات البوليس المصرى فى الإسماعيلية ، وكان الجيش المصرى قد أبعد إبعادا عن المعركة ، وكان الشعب يناضل أعداءه الانجليز فى سبيل حريته ؛ يريد أن يتحرر وأن يطرد المستعمرين ، وأن يعيش حرا ينعم بحريته ، وصلت أنباء معركة الانجليز فى الإسماعيلية مع قوات البوليس المصرى التى وقعت فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ إلى الشعب المصرى فى القاهرة ، فخرج الشعب فى الصباح يهتف ضد الملكية والخيانة ، وذهب الشعب الثائر إلى عابدين يهتف بسقوط فاروق ويحاول أن يخلع سور القصر الكبير ليصل إلى فاروق نفسه ، ونادى الشعب بسقوط سياسة الضعف والجبن والاستخذاء

---

(١) ٦٣١ مجلة الأزهر عام ١٣٧٣ هـ .

(٢) وكان حريقها إيذانا بانتهاء الدولة الفاطمية ، وقد تحقق ذلك بعد قليل .

فرأى أعوان فاروق وفاروق أن الأمر جد خطير ، وأن هذا اليوم المشئوم سيكون نذيرا بسقوط حكم فاروق ، فقرر دس بعض جماعات من البوليس السياسى لحرق القاهرة .

وبعد قليل كان الخونة وأعوان الاستعمار يحرقون مدينة القاهرة فى أماكن عديدة ، وكان الجيش فى مأدبة رسمية مع الملك فى عابدين ، وكانت قوات البوليس تعمل دون جدوى ، وكان الشعب واقفا فى الميادين والشوارع يشاهد الحدث الخطير الذى يعيش فيه .

وانتقلت النار من أماكن نزول الأجانب إلى أماكن مصرية خالصة ، وتهاوت العمارات الشاهقة وصعدت ألسنة اللهب فى المساء ، وبعد أن أحرقت العاصمة أمر الجيش فى المساء بالنزول لمنع إحراق القاهرة .

وانظروا إلى النتائج الغريبة لأعمال هؤلاء الديكتاتوريين الخائنين لشعبهم وأمتهم :

أحرق الحاكم الفسطاط فقتل بيد الشعب .

وأحرق العاضد ووزيره شاور الفسطاط فانتهى حكم الفاطميين ودولتهم من مصر [1] .

---

(١) ففى أوائل المحرم عام ٥٦٧ هـ مات العاضد الفاطمى وجلس وزيره صلاح الدين الأيوبى للعزاء ، ثم استولى على قصر الخلافة وما فيه من كنوز وأموال ونفائس ومخطوطات وسلاح ، ونقل أهل العاضد إلى مواضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم ، ويقال : بل حبسهم ، رجالا ونساء حتى ماتوا ، ولما بايع بعض المصريين ابن العاضد بالخلافة قتله صلاح الدين ، ولما بويع لسليمان بن داود بعده قبض عليه صلاح الدين وقتله وانتهت الدولة الفاطمية (٢١٩ و ٢٦٠ مصر فى ظلال الحكم الإسلامى) وقد قضى صلاح الدين على كل المحاولات التى كانت تدبر لإعادة الدولة الفاطمية (٢٦٢ـ٢٦٥ المرجع) .

وأحرق فاروق القاهـــرة فانتهى ملـكه وزالت دولة جده محمد على من مصر ، فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، وسبحانك اللهم ، مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشـاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير . . .

إن مصارع الدول سببها الأول هو ظلم ملوكها لشعوبهم ، واستبدادهم بالرعية ، وجورهم فى حكم الناس ، والدولة الفاطمية التى كانت لمصر فى عهدها امبراطورية ضخمة امتدت من المحيط الأطلسى إلى الشام والحجاز واليمن حينا من الزمان ، إنما قضى عليها ما قضى على الدول قبلها من الجور والعسف والظلم ، وحسبنا بحريق الفسطاط دليلا على منتهى ما يمكن أن يصل إليه البطش والطغيان من استهانة بحق الشعوب ومقدسات الإنسان .

الاسكندرية الباسلة

يوم حزين :

اليوم هو ٢٩ من يوليو ١١٧٤ م - ٢٦ من ذى الحجة عام ٥٦٩ هـ ، بعد سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية بزعامة صلاح الدين الأيوبى بعامين اثنين .

وما أشرق صباح هذا اليوم الحزين على مدينة الاسكندرية الخالدة حتى كان أسطول بحرى ضخم بما فيه من جيوش بحرية قوية تنزل فى مدينة الاسكندرية الباسلة .

كان بقايا البيت الفاطمى فى مصر ، قد اتصلوا سرا بالصليبين فى إمارات الشام ، وبالافرنج فى مدينة صقلية ، على أن يبعثوا بجيوش ضخمة تنزل فى مدينة الاسكندرية لتحتل مصر ، وتطرد صلاح الدين منها ، وتعيد البيت الفاطمى إلى العرش المفقود .

وما طلع صباح اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر إلا والأسطول الضخم المكون من ٢٧٦ سفينة تقف فى ميناء المدينة ، مائتا سفينة منها تحمل من الجنود المشاة خمسين ألفا ومن الفرسان ألفا وخمسمائة،وأربعون سفينة تحمل التموين ، وثلاثون تحمل الخيول ، وست سفن كبار تحمل العتاد الحربى ، ونزلت الحملة المدينة المسالمة الحزينة .

وكان صلاح الدين يومئذ هو سيد البلاد ، وكان منذ يوم الثلاثاء

٢٦ من جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ - ٢٨ مارس ١١٦٩ م وزيرا للخليفة الفاطمى العاضد ، وليس للعاضد معه شيء من أمور الدولة ، وفى عام ٥٦٥ هـ زم حملة صليبية حربية نزلت دمياط وحاصرت المدينة خمسين يوما ، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم ، وفى يوم الجمعة ٦ من المحرم عام ٥٦٧ هـ ١٠ سبتمبر ١١٧١ م خطب للخلافة العباسية فى مساجد مصر ، ولحسن الحظ مات العاضد دون أن يعلم شيئا عن هذا التطور الخطير الذى قضى على أسرته ودولته ومذهبه ، وأصبحت الدولة فى مصر من ذلك الحين لصلاح الدين وأسرته ، وفى يوم الجمعة ٣ من صفر عام ٥٦٧ هـ ، ٦ اكتوبر ١١٧١ م صعد المنبر بعد الصلاة وقرأ على الناس مرسوم الخليفة العباسى فى بغداد الصادر بولاية صلاح الدين على أرض مصر ، واستولى صلاح على قصر الخليفة الفاطمى وخزائنه ، وفيها من الأموال مالا يحصى ، ومن الذهب والجواهر ، ٧٠٠ عقد من الجوهر ، وصولجان طويل من الزمرد ، وعقود من اليواقيت ، وتيجان ذهبية ، وسوى ذلك من النفائس ، واستولى على خزانة كتب الخليفة وفيها مليونان من الكتب المخطوطة المجلدة ، وقد وهب للقاضى الفاضل من هذه المكتبة النفيسة الكثير [١] ، وكانت هذه المكتبة من عجائب الدنيا [٢] .

دولة انتهت ودولة جديدة صار لها النفوذ والسلطان فى مصر ، دولة الفاطميين لفظت أنفاسها الأخيرة ، ويقول الشاعر عمارة اليمنى فى رثائها :

---

(١) ٢ : ٢٥ حسن المحاضرة .

(٢) ٢ : ٢٥٥ خطط المقريزي .

رميت يادهر كف المجد بالشلل
وجيده جيد حلى الحسن بالعطل
ضـــفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيـــعتنا فى أكـــرم الدول

مقاومة باسلة :

كانت [١] المدينة المسالمة خالية من الجيش ومن السلاح ، ومع ذلك فقد خرج الشعب من المدينة الباسلة ليقاوم هذا الجيش الضخم ، وليحول بينه وبين النزول من البحر ، ولكن الجيش الزاحف تقدم من المدينة ونصب عليها الدبابات والمنجنيقات ، وبدأ يصلى المدينة الوادعة ناراً حامية ، ورأى المعتدون من شجاعة الشعب وحسن بلائه فى الدفاع ما راعهم .

جمع حاكم المدينة المصري الشعب داخل المدينة ، وبعث إلى صلاح الدين فى القلعة يخبره بنبأ هذه الحملة ، ويلح فى حضوره إلى المدينة المحاصرة لمنازلة الأعداء وطردهم منها .

ومع ذلك فقد ظل القتال بين الأعداء وبين الشعب المحاصر فى المدينة طيلة هذا اليوم الحزين .

وفى اليوم التالى عاد الأعداء إلى القتال بقوة مدفوعين بروح شريرة أثيمة ، واستمروا فى الزحف حتى وصلت دباباتهم أسوار المدينة ،

---

(١) راجع ٣٦٣ : ١ الفتوحات الإسلامية لدحلان .

وكانت وحدات من الجيش المصرى قريبة من الاسكندرية فدخلت المدينة لتشترك فى الدفاع عنها ، فارتفعت بذلك القـوة المعنوية فى الشعب الاسكندرى المناضل الذى قاتل هـذا اليوم بجلد وتصميم على الدفاع عن شرف الوطن .

وفى اليوم الثالث من أيام هذه المعركة الخالدة تمكن الشعب من رفع الحصار عن باب المدينة ، وخرج منه ينازل الأعداء من كل جانب ، واشتد القتال ، حتى وصل المصريون إلى الدبابات فأحرقوها ، وصمدوا فى القتال ، وظهرت بشائر النصر فى صفوف المجاهدين ، واستمر القتال إلى آخر النهار ، فعاد الشعب المجاهـد إلى المدينة مستبشرا فرحا بما رأى من آيات النصر ، وتباشير الظفر ، وهزيمة الأعداء وكثرة قتلاهم وجرحاهم ، وفى مساء هذا اليوم دخل صلاح الدين بجيوشه إلى المدينة ، وكان قد سار بعساكره إليها بعد أن بلغه نبأ الاعتداء الأثيم ، وبعث بوحدات قوية من الجيش إلى دمياط لحمايتها وتعزيز الدفاع عنها خوفا عليها واحتياطا لسلامة البلاد ، وقبيل وصول صلاح الدين وصـل الاسكندرية رسول من قبله فدخل وقت العصر ، وشعب الاسكندرية يتهيأ للرجوع إلى المدينة بعد بشائر الظفر التى أدركها ؛ فخطب فى الناس يبشرهم بمجىء صلاح والجيش إليهم على جناح السرعة .

وبعـد قليل وصل صلاح الدين يقود جيوشا ضخمة لينازل بها الأعداء ، ويطردهم من أرض المدينة .

النصر للأحرار :

وفى مساء اليوم الثالث نفسه من أيام هـــذه المعركة الخالدة خرج الشعب والجيش ، وقد زال ما بالناس من ألم الجراح ، وتعب القتال ، ونصب النضال ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معـه ، فهو يقاتل قتال الواثق بالنصر ، وسمع الأعداء بوصول صلاح الدين وجيشه ، فسقط فى أيديهم ، وخارت قواهم ، وانحطت روحهم المعنوية ، وازدادوا تعبا وكلالا وفتورا . إن الشاطىء الذى يحتفظ به الأعداء حيث نزلوا يكاد أن يخرج من قبضة أيديهم ، وها هو ذا الشعب والجيش يهاجمهم فى غلس الظلام بعنف وقوة ، ويصلون إلى معسكرات الأعداء ، ويغنمونها بما فيها من أسلحة ومهمات وعتاد حربى ، وكثر القتلى من الأعداء ، ففر الكثير منهم إلى البحر يحتمون بسفن الأسطول ، ولكن بعضهم استطاع الوصول إلى الأسطول ، والبعض الآخر غرق على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وقفز الشعب إلى سفن الأعداء فى البحر يحرقون ســـفن الأسطول ويدمرونها ، فلم يجد المعتدون المجرمون وسيلة إلى النجاة إلا الفرار بما بقى لهم من سفن ، وأخذ الجيش المصرى يطهر شواطىء الاسكندرية من فلول الأعداء ، ويبيد من اعتصم منهم بالصخور والتلال ، ويطهر أرض الوطن من دنس المعتدين .

وأشرق الصباح الجميل ، صباح اليوم الرابع من أيام المعركة ، والشعب يستقبل جنوده العائدين بالنصر ، وهم يهتفون لمصر الحرة بالمجد والحرية والكبرياء والخلود .

القلعة الحزينة

— ١ —

إن القلعة التى طالما سير صلاح الدين منها الجيوش ، ونظم العتاد ، لحرب أعداء مصر والعروبة والإسلام ، من الصليبيين . والتى طالما اهتزت أبراجها بتباشير النصر فى مئات المعارك ، لتبيت فى مساء الجمعة التاسع والعشرين من شهر صفر عام ٥٨٩ هـ ـ ٧ مارس ١١٩٣ م ، حزينة باكية ، يعلو قبابها الوجل والحزن العميق .

إنها من حيث كانت تنتظر بشائر النصر ، أتاها الناعى ينعى ملكها وزعيمها صلاح الدين الأيوبى نفسه ، حيث لاقاه أجله فى دمشق فى صباح يوم الأربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩ هـ ـ ٥ مارس ١١٩٣ م ، وهو فى نحو السابعة والخمسين من عمره (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ) .

إن القائد العظيم ، الذى لم يهزم فى معركة قط مع الأعداء ، يخر صريعا مهزوما فى معركة الموت والحياة ، ويدفن بقلعة دمشق ، ثم تنقل رفاته بعد سنتين إلى جانب الجامع الأموى حيث يقوم قبره الآن [1] .

إن صلاح الدين لم يمت ، إنه حى بأعماله وإصلاحاته وانتصاراته العظيمة ، التى دوى بها الزمان .

لقد أسس لمصر امبرطورية ضخمة ، وأعاد لها مجدها ومنزلتها الكبرى فى العالمين : العربى والإسلامى .

---

(١) راجع ٢٩٧ مصر فى ظلال الحكم الإسلامى .

فى عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م فتح جيشه برقة وطرابلس والجزء الشرقى من تونس ، وامتد نفوذ مصر إلى مدينة قابس المشهورة .

وبعد ذلك بعام رحل جيشه بقيادة أخيه الأكبر تورانشاه من القاهرة فى فبراير عام ١١٧٤ م إلى مكة ، ومنها إلى اليمن ، حيث فتحها وضمها إلى الدولة المصرية[1]، وصارت جزءا لا يتجزأ من امبراطورية مصر العظمى ، ومات السلطان نور الدين سلطان حلب فى ١٥ مايو ١١٧٤ م - ٢٠ شوال ٥٦٩ هـ ، وكان فرحا بانتصارات قائده صلاح الدين ، مزهوا فخورا ، وكان صلاح الدين ما فتىء محتفظا بمظاهر الخضوع والتقدير لنور الدين ، إلى يوم أن توفاه الله فى هذا العام .

وفى أول يناير عام ١١٧٥م - ٥ جمادى الثانية ٥٧٠هـ انتصرت جيوش صلاح الدين قرب « حماه » على الثائرين عليه ، وأكد أخوة مصر وشقيقتها العربية : سوريا المجيدة ، واستقبلت دمشق صلاح الدين استقبال الأبطال . وكان الجيش المصرى واقفا لأعدائه على التلال المشرفة على وادى نهر العاصى وهى المعروفة بقرون حماة ، فشتت شمل جيوش أمراء حلب والموصل ، التى ثارت عاملة على تشتيت شمل العروبة والإسلام ، وقد عاد صلاح الدين إلى الاشتباك معهم مرة أخرى فى العام التالى عند « تل السلطان » جنوبى حلب بنحو خمسة عشر ميلا ، وتم الصلح فى يوليو عام ١١٧٦ م على أن تكون الشام كلها لصلاح الدين ، عدا حلب وإمارتها فتبقى للملك الصالح بن نور الدين .

---

(١) راجع صفحة ١٩٩ ج ٢ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى ، وما بعدها إلى صفحة ٢٠١ ، و ص ٢٦٨ و ٣٢٠ مصر فى ظلال الحكم الإسلامى .

وملك صلاح الدين الحجاز ، وصار بذلك حامى حمى الحرمين الشريفين[١] .

ثم قهر الصليبيين فى مئات المعارك وأخذ منهم بيت المقدس وكثيرا من الحصون المبثوثة التى غلبوا عليها من قبل فى جنوبى الشام ، ففى عام ١١٨٧ م ، ٥٨٣ هـ ، انقض صلاح الدين على الصليبيين بجيشه حين انتهكوا شروط الهدنة التى كانت معقودة بينهم وبينه عام ١١٨٠ م ، فقطع أحد فرسان الصليبيين وهو « ريجينولد » ـ ويسميه العرب أرناط ، صاحب حصن الكرك ـ طريق الحجاج والمسافرين إلى مصر ، وسلب القوافل ، وكان من بين هذه القوافل قافلة كانت فيها أخت صلاح الدين ، فصمم صلاح على الانتقام ، وأقسم أنه يقتل صاحب الكرك إن وقع فى يده ، وقامت الحرب بين صلاح الدين والصليبيين ، وسقط حصن الكرك فى يد صلاح الدين ، ثم تلاقت الجيوش المتحاربة فى موقعة « حطين » المشهورة فى ٣ يوليو عام ١١٨٧ م ، ٢٣ ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ ، وفى يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر من عام ٥٨٣ هـ أحدق صلاح الدين وجيشه بجيوش الصليبيين من كل ناحية ، وانهزم الصليبيون هزيمة ساحقة ، وأبيد منهم عشرة آلاف ، ووقع رؤساؤهم أسرى فى يد صلاح الدين ، ومن الأسرى : ملك الافرنج فى بيت المقدس ، وصاحب حصن الكرك ، وسواهما ، وكان من نتيجة هذه المعركة الفاصلة فى التاريخ أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس فى ٢٧ رجب عام ٥٨٣ هـ ـ

---

(١) راجع فى ذلك ١٩٨ جـ ٢ شفاء الغرام للفاسى . ويحدد الفاسى تاريخ إزالة نفوذ الفاطميين من الحجاز ودخوله تحت نفوذ الأيوبيين بعام ٥٨١ هـ .

٣ أكتوبر ١١٨٧ م ، واستخلصها من أيدى الصليبيين بعد كفاح دام نحو مائة عام ، فأعيدت القدس والمسجد الأقصى إلى حوزة المسلمين ؛ وسقطت حصون عكا ونابلس والرملة وقيسارية ويافا وبيروت ، دون مقاومة ، وكانت حصونا هامة وقعت فى أيدى الصليبيين منذ زمن طويل . وأظهر صلاح الدين تسامحا وشفقة نحو فقراء الصليبيين ونسائهم وأطفالهم ، فقد ترك لهم فرصة أربعين يوما لإخلاء بيت المقدس ، وفك أسر ملك بيت المقدس بعد أن أقسم ألا يحارب صلاح الدين ؛ ولم تنقطع الحروب بين جيوش صلاح الدين والصليبيين يوما واحدا من أيام حكمه .

ولما مات الملك الصالح عام ١١٨١م دخلت دولة نور الدين محمود فى حوزة صلاح الدين ، وأصبح ملكه يمتد من جبال كردستان إلى طرابلس، ومن اليمن إلى الأناضول .

وفتح صلاح الدين كثيرا من بلاد النوبة ، وامتدت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ، ودخلت فيها اليمن والشام .

وحصن صلاح الدين الثغور ، وعنى بالأسطول المصرى عناية فائقة ، فكان لمصر أسطول فى البحر الأحمر ، وأسطول فى البحر الأبيض .

وكان يريد أن يحيط العاصمة بسور عظيم تدخل فيه الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، وقد تم جزء كبير من هذا السور ، وصلاح الدين هو الذى ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم ، وأصبحت القلعة عاصمة سلاطين مصر أمدا طويلا .

ومع ذلك كله فقد كان محبا للعلم والعلماء ، أنشأ المدارس والجامعات، وشجع العلماء والطلاب ، ويقول السيوطى[1] : إنه رحل إلى الاسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من الإمام السلفى[2] ولم يعهد ذلك من ملك إلا هرون الرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع « الموطأ » منه .

— ٢ —

وقد زار عبد اللطيف البغدادى الرحالة العربى المشهور(٥٥٧-٦٢٩هـ) مصر ، ونزل فى ضيافة ملكها العظيم صلاح الدين الأيوبى ، وألف عن مصر كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . ويقص البغدادى قصة رحلته إلى مصر[3] ، فيقول : « توجهت إلى صلاح الدين بظاهر عكا ، فاجتمعت ببهاء الدين شداد قاضى العسكر ، فانبسط إلى ، وأقبل على ، وقال : تجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا إليه ، وخيمته إلى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتابا إلى الديوان العزيز من غير مسودة ، وقال : هذا كتاب إلى بلدكم ، وذاكرنى فى مسائل من علم الكلام ، وقال : « قوموا بنا إلى القاضى الفاضل[4] ، فدخلنا عليه،

---

(١) ٢٦ : ٢ حسن المحاضرة .

(٢) توفى السلفى فى الاسكندرية عام ٥٧٦هـ عن أكثر من مائة عام (راجع ٧٣ : ٢ قصة الأدب فى مصر للمؤلف) .

(٣) راجع كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة فى ترجمته للبغدادى ، وكتاب عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، وص ٧ حـ ٢ فوات الوفيات لابن شاكر وكتاب عبداللطيف البغدادى لعبد السلام العشرى ، ويذكر ابن شاكر أن البغدادى ألف كتاب أخبار مصر الكبير ص ٨ ج ٢ فوات .

(٤) كان وزير صلاح الدين ، عالى المنزلة فى الدولة الايوبية (٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ) ص ٣٣٣ ـ ٣٣٧ ج ٢ وفيات الأعيان .

فرأيت شيخا ضئيلا ، كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حسه فى إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه ؛ وقال لى : نرجع إلى دمشق ونجرى عليك الجرايات، فقلت : أريد مصر ، فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها ، فقلت : لا بد لى من مصر ، فكتب لى ورقة صغيرة إلى وكيله بها . فلما دخلت القاهرة جاءنى وكيله وهو ابن سناء الملك ، وكان شيخا جليل القدر ، نافذ الأمر ، فأنزلنى دارا ، وجاءنى بدنانير وغلة ، ثم مضى إلى أرباب الدولة ، وقال هذا ضيف القاضى الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل جانب ؛ وكانت كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضى الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الدولة ، وفيها فصل يؤكد الوصية فى حقى ؛ وقمت بمسجد ابن الحاجب رحمه الله أقرىء الناس .

ويصف البغدادى صورا من حياة مصر الفكرية فى عهد صلاح الدين فيقول : كان قصدى فى مصر ثلاثة أنفس : ياسين السيميائى (١) ، وموسى ابن ميمون اليهودى ، وأبو القاسم الشارعى .

أما ياسين فوجدته مشعبذا كذابا ؛ يشهد للشاقانى بالكيمياء ، ويشهد له الشاقانى بالسيمياء ، ويقول عنه : إنه يعمل أعمالا يعجز موسى بن عمران عنها .

وجاءنى موسى فوجدته فاضلا ، فى الغاية ، قد غلب عليه حب الرياسة ، وخدمة أرباب الدنيا ، وعمل كتابا فى الطب ، جمعه من الستة عشرة

(١) أى الذى صناعته السيمياء وهو السحر .

لجالينوس ، ومن خمسة كتب أخرى ، وشرط أن لا يغير فيه حرفا ، إلا أن يكون واو عطف أو فاء وصل ، وإنما ينقل فصولا يختارها .

وكنت ذات يوم بالمسجد ، وعندى جمع كثير ، فدخل شيخ رث الثياب ، نير الطلعة ، مقبول الصورة ، فهابه الجمع ، ورفعوه فوقهم ، وأخذت فى إتمام كلامى ، فلما انصرم المجلس جاءنى إمام المسجد ، وقال : هذا أبو القاسم الشارعى ، فاعتنقته ، وقلت : إياك أطلب ، فأخذته إلى منزلى ، وتفاوضنا الحديث ، فوجدته كما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين ، سيرته سيرة الحكماء العقلاء ، وكذا صورته ، لا يتعلق من الدنيا بشىء يشغله عن طلب الفضيلة ، ثم لازمنى فوجدته قيما بكتب القدماء ، وكتب الفارابى ، وكنا إذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل ، وفضل اللسن ؛ ويغلبنى بقوة الحجة وظهور المحجة .

ويصف البغدادى صلاح الدين فيقول : وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج ، وعاد إلى القدس ، فقادت الضرورة إلى التوجه إليه ، فأخذت من كتب القدماء ما أمكننى ، وتوجهت إلى القدس ، فرأيت ملكا عظيما ، يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون إلى المعروف . وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حافلا بأهل العلم ، يتذاكرون فى أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ فى كيفية بناء الأسوار ، وحفر الخنادق ، ويتفقه فى ذلك ، ويأتى بكل معنى بديع ، وكان مهتما فى بناء سور القدس وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الأحجار على عاتقه ، ويتأسى به جميع

الناس : الفقهاء والأغنياء ، والأقوياء والضعفاء ؛ حتى العماد الكاتب ، والقاضى الفاضل ؛ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ، فيأتى داره ، ويجد الطعام ، ثم يستريح ويركب العصر ، ويرجع فى المشارع ، ويصرف أكثر الليل فى تدبير ما يعمل نهارا .

ويتحدث البغدادى عن وفاة صلاح الدين وذهول الناس لوفاته فيقول : دخل صلاح الدين دمشق وخرج يقابل الحاج ، ثم رجع ، فحم ، ففصده من لا خبرة عنده ، فخارت القوة ، ومات ، ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء ، وما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه ، لأنه كان محبوبا ، يحبه البر والفاجر ، والمسلم والكافر .

ولما لزم البغدادى الملك العزيز وسافر معه إلى القاهرة ، أخذ يلقى دروسه فى الجامع الأزهر ، ويصف البغدادى حياته وحياة الأزهر الثقافية فى هذه الفترة فيقول : وكنت أقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر ، فيقرأ قوم آخرون ؛ وفى الليل أشتغل مع نفسى ، ولم أزل على ذلك ، إلى أن توفى الملك العزيز ،وكان شابا كريما شجاعا كثير الحياء ، لا يحسن قول « لا » ،وكان مع حداثة سنه ،وشرة شبابه، كامل العفة عن الأموال والأعراض .

— ٣ —

إن القلعة الحزينة ،حين بلغها نعى سيدها وزعيمها صلاح الدين، كانت تتذكر كل هذه الأعمال والمآثر العظيمة وتلتفت من ورائها ، فلا تجد إلا ذكريات خالدة ، وأعمالا مجيدة ، لم يكتب مثلها ملك من الملوك .

مات صلاح الدين ، وهو الذى طالما أحيا بأعماله المجـــد والنهضة والقوة فى جسم العالم الإسلامى .

مات صلاح ، وكان قد عاد من رحلة صيد له فى خارج دمشق ، فتلقته المدينة فى الحـادى عشر من شهر صفر عام ٥٨٩ هـ بالبشر والترحاب ، ثم استقبل وفود الحجاج العائدين من بيت الله الحرام ، فهنأهم ، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، ثم استقبل ابن أخيه سيف الإسلام وكان قد عاد من اليمن ، فتلقاه صلاح الدين بالبشر والإكرام ؛ وفى ليلة السبت ١٦ صفر كان كعادته فى مجلسه ، بين رجال دولته وحاشيته ؛ وفى صباح السبت لم يخرج إلى الديوان كعادته لمرضه ، ولم يخرج إلى الناس حتى توفاه الله .

مات صلاح الدين فماتت بموته الآمال ، وشيع الناس رجلا من عظماء الرجال ، ودفنوا بالقلعة فى دمشق فى دار صلاح الدين (١) بطلا من أعظم أبطال التاريخ . . رحمه الله .

---

(١) راجع ص ٣٢٦ الفتح القسى للعماد الأصفهانى الوزير ــ طبعة القاهرة ١٣٢١ هـ

المدينـــة الخالدة

حملة صليبية فاشلة :

هذه هى سفن حربية ضخمة للصليبين تظهر فجأة فى ٤ ربيع الأول عام ٦١٥ هـ ، أول يونيو عام ١٢١٨م . إنها حملة صليبية جديدة ، حملة جان دى برين ، هدفها احتلال مصر ، والقضاء على قواتها العسكرية باعتبارها زعيمة الشرق ، والمدافعة عن العروبة والإسلام ، ووقفت الأساطيل فى البحر الأبيض تجاه دمياط تحاول الدخول إلى فرع النيل والاستيلاء على المدينة المكافحة الخالدة .

وكانت دمياط آنذاك ثغرا بحريا ضخما ، يكتظ بالسفن التجارية الآتية من مدن ايطاليا واليونان وأرمينيا والشام وقبرص ، والتى تحمل البضائع والسلع ، وتحمل كذلك الأسلحة ، وكان صلاح الدين من قبل قد عقد المعاهدات التجارية مع البندقية وجنوة ، على أن يصدروا له السلاح وذخائر الحرب .

كان ملك مصر آنذاك هو الملك العادل (٥٩٦ - ٦١٥ هـ) ، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان نائبه فى الدفاع عن دمياط هو ابنه الملك الكامل .

وتوفى العادل يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة عام ٦١٥ هـ - أول سبتمبر ١٢١٨م ، فنهض بالعبء بعده الملك الكامل ، وألقيت على كاهله مسئولية الدفاع عن أرض الوطن ضد الغزو الصليبي المدمر .

وفى ٢٠ من ذى القعدة عام ٦١٦هـ - ٨ فبراير ١٢١٩ م تمكن الصليبيون من عبور النيل إلى ناحية دمياط ، بعد أن أخلى الجيش المصرى مواقعه استعدادا للمعركة الفاصلة .

وأخذت اللصوص بعد انسحاب الجيش المصرى تنهب البلاد ، وتكثر من الفساد ، ودلف الافرنج إلى المدينة يحاصرونها ويدكون حصونها لتستسلم ، ولكن المقاومة الشعبية فى المدينة تمكنت من الدفاع عنها تسعة أشهر كاملة ، فلم تستسلم المدينة المناضلة إلا فى ٢٧ من شعبان عام ٦١٦ هـ - ٨ نوفمبر ١٢١٩ م ، وكان ذلك حدثا جديدا من أحداث التاريخ في مصر الخالدة .

ملك الصليبيون دمياط ، وحولوا جامعها كنيسة لهم ، وعسكر الملك الكامل الأيوبى بجيشه تجاه طلخا على رأس بحر أشموم فى موقع حصين مختار من أوائل رمضان عام ٦١٦ هـ - نوفمبر ١٢١٩ م ، وأخذ يزيد فى تحصين هـذا الموقع ، ويبنى فيه المعسكرات والمنازل والحمامات والأسواق والفنادق ؛ ومن ثم نشأت مدينة جديدة صغيرة ، سميت باسم المنصورة ، تفاؤلا بالنصر على جيوش الأعداء ، وبنى الكامل له فى هذه المدينة قصر اسماه « القصر السلطانى » ؛ وأخذ يعزز موقفه الحربى الجديد .

وزحف الصليبيون على الجيش المصرى تجاه المنصورة ، فى عام ٦١٧هـ ، ١٢٢٠ م ، بقوات كبيرة ، وناضل الكامل الصليبيين فى معارك كثيرة بجوار المنصورة ، وفى هذا الوقت كان الفيضان فى الذروة ، فأمر الكامل بقطع جسور النيل ، فأحاطت المياه بالأعداء من كل جانب ، وقطعت عليها

الطرق ، فاضطروا إلى طلب الصلح الذى تم فى ٧ رجب عام ٦١٨ هـ - ٢٨ أغسطس ١٢٢١م حيث منح الصليبيون الأمان بشرط أن يعودوا إلى بلادهم ، وأخذ الكامل رهائن من ملوكهم ريثما يسلمون دمياط .

وفى ٩ رجب ٦١٨ هـ - ٣٠ أغسطس ١٢٢١ م سلم الصليبيون المدينة الخالدة إلى الجيش المصرى ، وبذلك استعادت أرض الوطن الحرية والسلام ، وظل الكامل يحكم البلاد إلى أن توفى بدمشق يوم الاربعاء ٢١ من رجب عام ٦٣٥ هـ [1] .

حملة جديدة :

وفى أوائل عام ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م رست أمام ثغر دمياط من جديد حملة صليبية ثانية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وكان ملك مصر آنذاك هو الملك الصالح الأيوبى (٦٣٧هـ - ٦٤٧م) وهو الذى أنشأ فى الجيش فرقا كبيرة من المماليك وأسكنهم قلعة الروضة ، فسموا المماليك البحرية ، وأكثر من شراء الترك وعتقهم ، واستخدمهم فى الوظائف الكبرى ، فأعلن عز الدين بن عبد السلام عليه الثورة .

وكان الصالح معسكرا بجيشه فى المنصورة ، وأخذ جيش لويس التاسع دمياط فى أواخر صفر عام ٦٤٧هـ - يونيو ١٢٤٩ م ، بعد أن رأى الجيش المصرى ترك الدفاع عنها ، وأن تقام مراكز الدفاع جنوبيها ، وبعث لويس

---

(١) راجع جميع مصادر التاريخ الإسلامى ، و ٢٠٥ وما بعدها من كتاب « كفاحنا ضد الغزاة » .

إلى الصالح رسالة يقول له فيها [1] : « إنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ؛ وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية ؛ فلو حلفت لى بكل الأيمان . وعملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع إليك ... الخ » .

فرد عليه الصالح يقول : « أما بعد فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، لكان لك أن تعض أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك » .

ولم يلبث الصالح أن توفى فى المنصورة فى ١٥ من شعبان عام ٦٤٧ هـ - ٢٤ نوفمبر ١٢٤٩م ، وهو يناوش الصليبيين ، ويناضلهم نضال الأبطال . وأخفت « شجرة الدر » ملكة مصر خبر وفاة زوجها الملك الصالح ، واستدعت سراً ابنه الملك المعظم توران شاه من الشام ، واشتدت الحرب بين الجيشين ، وفى ٥ من ذى القعدة ٦٤٧هـ اجتاز الغزاة بحر أشموم ، وهجموا على الجيش المصرى ، ووصلت طلائعهم إلى باب القصر السلطانى فى المنصورة

---

(١) ١ : ٢١٩ خطط المقريزى .

ولكن وحدات من الجيش المصرى ردتهم على أعقابهم ، وفى ١٩ من ذى القعدة دخل توران شاه المنصورة ، وتولى قياده الجيش ، وأعلن نبأ وفاة والده وتوليه عرش مصر بعده ، وأخذ يدافع عن بلاده دفاع الأبطال ، وأبلى بلاء حسنا فى مقاومة الغزاة .

وكان أعلام مصر وعلماؤها فى المنصورة فى صفوف الجيش المدافع عن حرية مصر وشرفها ، فالعز بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، والأخميمى ، ومكين الدين الأسمر ، والمنذرى ، وسواهم ، كانوا يعملون فى صفوف المجاهدين .

ولم يلبث لويس أن عجز عن فتح المنصورة ، وكثر المرض فى جيشه ، فرغب فى التقهقر ، ولكن توران شاه كان قد قطع عليه طريق العودة ؛ وفى يوم ٨ أبريل ١٢٥٠م كانت المعركة الفاصلة التى هزم فيها الصليبيون عند فارسكور ، وفروا إلى دمياط ، وأسر لويس التاسع ملك فرنسا هو وأسرته ، واعتقلوا فى الدار التى كان ينزل فيها القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب الإنشاء للملك ، ومزق جيش الصليبيين شر ممزق ، وقتل منهم نحو الثلاثين ألفا . وفى غمار هذا النصر العظيم ثار مماليك توران شاه عليه وقتلوه ودفن فى ٢٩ من المحرم ٦٤٨ هـ - ٤ مايو ١٢٥٠ م ، فتولت « شجرة الدر الملك ، وخطب لها على المنابر .

طلب الصليبيون الصلح ، وبذلوا فدية كبيرة على أن يفك سراح لويس وأسرته ، ويسلموا دمياط للجيش المصرى ، ويرحلوا عن أرض الوطن كافة ، فوافقت الملكة ومستشاروها على ذلك ، واستعاد الجيش المصرى

دمياط ، ورفع العلم السلطانى عليها فى اليوم الحادى عشر عام ٦٤٨ هـ - ١٦ مايو ١٢٥٠م . وبذلك تحررت أرض الوطن ، ونجت من اعتداء هؤلاء البرابرة الغزاة الأثيمين .

واحتلت دمياط والمنصورة فى تاريخ الوطن السياسى والعسكرى أرفع مكانة بين مدن مصر الباسلة المجيدة .

إن يوم دخول الجيش المصرى مدينة دمياط كان يوما خالداً فى تاريخ الوطن ، فقد أصبح الشعب المصرى فى دمياط ، ينعم بالحرية ، ويتنفس ملء رئتيه حرا طليقا ، وذهب المعتدون إلى غير رجعة ، وطردوا شر طردة ، مجللين بعار الهزيمة والخزى والخذلان .

يا وطنى : سلمت ، ونعمت دائماً بالحرية والمجد والكرامة والاستقلال .

إن فرق الجيش المصرى تحتفل فى دمياط المدينة الخالدة بالنصر ، ولويس المهزوم هو وجنده الأبطال يرتعدون فرقا وهم يركبون سفنهم الذليلة إلى بلادهم [1] ، إلى غير رجعة ، قانعين من الغنيمة بالإياب . . .

---

(١) خرج لويس فى سفينة صليبية إلى عكا ، وكانت عكا لا تزال آنذاك فى أيدى الصليبيين ، وكانت زوجته مرجريت قد سبقته اليها ومعها ابنها الذى ولدته فى دمياط ، وأطلقت عليه اسم جان تريستان ، أى وليد الأحزان ، ومن عكا عاد لويس إلى بلاده مهزوما مهموما — راجع ص ٢٣٨ من كتاب كفاحنا ضد الغزاة ، ١٠٦ – ١٢٢ مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لعنان ، ١٢٢ صور من البطولة الإسلامية ، وعنان فى مقالة فى مجلة الهلال عدد أغسطس ١٩٥٧ .

الجيش المنتصر

فى يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ ـ الحادى عشر من فبراير عام ١٢٥٨ م، كان الخليفة العباسى المستعصم ومعه أولاده الثلاثة : أبو الفضل وأبو العباس وأبو المناقب ، ووراءهم كبار رجال الخلافة فى بغداد ، يسلمون مدينة بغداد لهولاكو التترى المدمر . وبعد ذلك بثلاثة أيام كانت جيوش هولاكو قد احتلت المدينة ودكت حصونها وقواعدها الحربية ، وأقبلوا على نهب المدينة وتخريبها وقتل سكانها جميعاً دون هوادة ولا رحمة ، وفى الرابع عشر من صفر ٦٥٦ هـ ـ ٢٠ فبراير ١٢٥٨ قتل هولاكو الخليفة المستعصم وولده الأكبر وبعض رجال حاشيته ، ثم قتل أقارب الخليفة وأعوانه ومن يلوذون به ؛ وبعد قليل أصبح العراق كله فى قبضة هولاكو .

كانت مصر فى ذلك الحين تشاهد نهاية حكم الأيوبيين ؛ كان على عرشها الملك الشاب المنصور بن المعز عز الدين أيبك التركمانى[1] ، وكان قد ولى الحكم بعد قتل أبيه فى آخر ربيع الأول عام ٦٥٥ هـ ، وكان فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، وظل ملكاً على مصر عامين وثمانية أشهر ؛ إلى أن ثار قائد الجيش الأمير سيف الدين قطز عليه ، واعتقله فى أول يناير ١٢٥٩ م ـ ٤ من المحرم عام ٦٥٧ هـ ، وملك مكانه ، ولقب نفسه بالملك المظفر ، وكان قد جمع الأمراء والعلماء والأعيان ، وأصدر هذا المؤتمر

---

(١) ولى المعز حكم مصر نحو ثلاث سنوات (٦٥٢ ـ ٦٥٥) .

بيانا للشعب قالوا فيه : « إن المنصور شاب لا يصلح للملك، ولا سيما فى هذه الأيام الصعبة ، التى تحتاج إلى ملك حسن السياسة والتدبير والشجاعة ، ليصد غزو التتار عن الشام ومصر » ، وكان كثير من الشاميين قد وصلوا إلى مصر يطالبون بالنجدة خوفا من وقوع بلادهم فى أيدى المدمرين التتر .

أرسل هولاكو إلى حاكم الشام من قبل مصر بعد استيلائه على العراق ثلاث رسائل ، يأمره فيها بالدخول فى طاعته ويهدده ، ويذكر له تخريب بغداد وما فعله بأهلها ، فكاتبه والى الشام وجامله ، وأرسل له بعض الهدايا .

ولكن جيش هولاكو تقدم حتى استولى على كثير من بلاد الشام ، ودخل دمشق ، وأقام هولاكو نائبا عنه فى حكم الشام ، ثم أرسل إلى قطز رسالة يهدده فيها بالغزو ، ويطلب فيها الخضوع لسلطانه [1] ، وكان قطز آنذاك هو ملك مصر ، وقد جمع كل السلطات بيده ، ورأى « قطز » أن مفاوضة هولاكو شر ووبال على البلاد ، فقتل رسله ، وأخذ يجند الشعب للدفاع عن مصر ضد الغزو التترى ، وخرج من مصر فى شعبان عام ٦٥٨ هـ بجيش ضخم تقدم به إلى حدود فلسطين ، حتى عسكر به فى عين جالوت [2] .

---

(١) جاء فى هذه الرسالة: « لقد رفع الله بيت جنكيز خان ومنحه الحكم والسلطان فى جميع أنحاء الارض، وقد هلك كل من أراد مقاومة أسلحتنا ، فاذا ركنتم إلى جانب الخضوع فاحضروا بشخصكم حاملين ماعليكم من جزية ، واقبلوا فى ممالكتم ماكا يحكم باسمى . وإلا فاستعدوا للحرب » .

(٢) تقع بين بيسان ونابلس فى فلسطين .

ودارت رحى الحرب فى موقعة عين جالوت ، وأسفرت المعركة عن انتصار الجيش المصرى انتصارا باهرا فى ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ - ٤ سبتمبر ١٢٦٠ م ، حقق لمصر السيادة على العالم العربى والإسلامى أكثر من قرنين من الزمان .

هزم التتر المغول فى عين جالوت ، وقتل قائدهم كتبغا ، ودخل الجيش المصرى دمشق فاستردها ، ومد نفوذ مصر إلى نهر الفرات ؛ وأصبحت مصر حامية العروبة والإسلام منذ ذلك التاريخ .

هزم جيش هولاكو فى « عين جالوت » فى ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ - ٤ سبتمبر ١٢٦٠ م ، هزيمة ساحقة ، جعلته يفيق من غروره ، ليشعر بأنه فقد سيادته على بلاد الشام كلها ، وأنه صار معزولا فى أرض العراق عن الشرق العربى ، وبعد قليل مات هولاكو ٦٦٢ هـ : ١٢٦٥ م .

وهكذا حقق الجيش المصرى انتصارا [1] ، كان نقطة تحول فى تاريخ مصر والعرب والإسلام .

---

(١) راجع سقوط بغداد فى كتاب « محاضرات فى التاريخ الإسلامى مطبعة الأزهر ١٩٥٥ ص ٢٤٠ — ٢٥٦ — ومحنة الإسلام الكبرى للدكتور مصطفى بدر — ولا ننسى أن التتار هزموا أمام الجيش المصرى عام ٧٠٢ هـ فى أرض الشام مرتين (٤٤ جـ ٢ الفتوحات الإسلامية) .

لا سلطان إلا للشعب

كان الحكم فى مصر للدولة الأيوبية ، والملك آنذاك هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان قد تولى حكم البلاد عام ٦٣٧ ه ، وكان سياسيا بارعا ، دبر أمور المملكة على أحسن وجه ، وصرف شئونها أجمل تصريف .

بيد أن الصالح عمر قلعة الروضة ، واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها ، وسماهم البحرية ، وهو الذى أكثر من شراء الترك وعتقهم وتنصيبهم أمراء فى الجيش المصرى يحكمون الجيش والبلاد .

وزاد ظلم هؤلاء الأمراء للشعب واستبدادهم بمصالحه ، فغضب الشيخ عز الدين بن عبد السلام غضباً شديداً ، وقال :

«إن هؤلاء الأمراء الأتراك أرقاء بحكم الشرع للشعب المصرى الذى هو سيدهم الأكبر ؛ إن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة ، وما زال حكم الرق مستصحبا عليهم» .

وأخذ الشيخ يكتب فتوى شرعية بذلك، يقول : « إنه لم يثبت عنده أن هؤلاء الأمراء الأتراك أحرار ؛ إن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت المال ، وإنه لا بد من بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصالح الأمة .

وبلغت الفتوى هؤلاء الأمراء ، وكان فيهم نائب السلطنة ، وكلهم من أصحاب النفوذ والحكم والسلطان .

وثار الأمراء ، وامتلأوا غيظا ، وعجبوا مما صنعه العز بن عبد السلام ، وأرسلوا إليه ليكف عن صنيعه ، الذى لا يليق أن يصنعه معهم ، وهم أصحاب الحكم والسلطان فى مصر .

ولم يبال الشيخ بذلك ، وصمم على فتواه ، وامتنع عن أن يصحح لهم بيعا أو شراء أو زواجا ، أو أى تصريف آخر فى أمور الناس وشئون الحكم . فوقفت مصالحهم ، ومصالح أعوانهم فى الدولة .

ورفع الأمراء الأمر إلى السلطان ، فأرسل إلى الشيخ الثائر ، وطلب منه أن يصرف نظره عن ذلك الموضوع ، وبين له ما فى هذه الفتوى من الإضرار بأولئك الأمراء الذين لهم مكانتهم فى الدولة .

ورد الشيخ على السلطان يقول : « إنه لا بد له من أن ينفذ فتواه ، لأنها كلمة الشرع ، وإرادة الشعب ، وحق الإسلام ، وأنه سينادى على أولئك الأمراء بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فإنه سيعزل نفسه من منصب القضاء ، ويترك فتواه قائمة فى البلاد الإسلامية » .

وسكت السلطان ، وأخذ نائبه يتودد للشيخ ، وأرسل إليه ليراجع نفسه وفتواه ، ولكن العز أصر على موقفه .

وخرج نائب السلطان ، وركب جواده ، وشهر السيف فى يده ، وطرق باب الشيخ ، فخرج ابن للشيخ ، يشاهد هذا المنظر الرهيب ، ثم عاد

إلى والده يخبره بالأمر : نائب السلطنة على فرسه والسيف فى يده ، يطرق الباب طرقا عنيفا ، إنه يريد شرا .

فرد الشيخ على ابنه يقول : يا بنى لا عليك ، إن الأمر لله ، وأبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ، ثم نهض وفتح الباب ، ودخل النائب ، وإذا به يسرع فيغمد السيف ، ويهوى على يد الشيخ يقبلها ، ويسأله : ما تريد بنا ؟ قال الشيخ : أنادى عليكم وأبيعكم .

وفى الصباح عقد مجلس كبير من رجالات الدولة ، وحضر السلطان ، وحشد الأمراء الأتراك جميعا ، وأخذ ينادى عليهم بالبيع واحدا واحدا ، ويغالى فى ثمنهم لأنهم أمراء ولأنهم أصحاب السلطان ، وغالى أكثر ما غالى فى ثمن نائب السلطان ، فدفع السلطان إلى الشيخ كل ما أراد من مال ، وأخذه الشيخ فوزعه فى وجوه الخير ومصالح الشعب ، ثم أعتق الأمراء الأرقاء ، ومنحهم حق الحرية فى التصرف والبيع والشراء (١) .

هذا الموقف الخالد هو أحد مواقف الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام .. وفى عهد السلطان المظفر « قطز » أراد السلطان فرض ضرائب جديدة على الشعب لمواجهة مصاريف الحرب ، وجمع السلطان لذلك العلماء ، فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام وثار فى وجه قطز المستبد وقال له : لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شىء إلا إذا لم يبق فى بيت المال شىء ، وبعتم مالكم ،

---

(١) راجع ٦٨ / ١ الأزهر فى ألف عام ، ٣٤ / ٢ حسن المحاضرة ، و٦٦ صور من البطولة الإسلامية ، والتراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر .

واقتصر كل منكم على فرســـه وسلاحه ، وتساوى الأمراء فى ذلك هم والشعب ، أما أخذ أموال الشعب مع بقاء ما فى أيدى غيره من الأموال والآلات الفاخرة فلا (١) .

وفى الغزو الصليبي لمصر عام ٦٤٧ هـ اشترك عز الدين بن عبد السلام فى الحرب فى معركة المنصورة الخالدة (٢) .

هذا هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضى مصر فى آخر عهد الدولة الأيوبية وأوائل عهد دولة المماليك ، وكان الشيخ لا يبالى بإنسان فى الحق ، كان يغلظ على الملوك ويعنفهم ، ولما مات فى عاشر جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ - ٣ ابريل ١٢٦١ م قال بيبرس : لم يصف لى ملك مصر إلا بعد موت الشيخ (٣) ، ولما تولت شجرة الدر حكم مصر كان الشيخ لا يبالى فى إعلان السخط على توليها حكم البلاد . وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يقول : ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام . . رحمه الله فلقد كان قوة شعبية ضخمة ، أيد الله به الحق والحرية .

(١) راجع ٣٥ و ٣٦ : ٢ حسن المحاضرة .
(٢) ٣٤ : ٢ المرجع نفسه .
(٣) راجع ٦٦ : ٢ حسن المحاضرة .

موكب الخليفة فى القاهرة

اليوم هو يوم الخميس الثانى من رجب عام ٦٥٩ هـ - ٢ يونيو ١٢٦١م، والقاهرة فى أجمل زينتها ، وأروع مباهجها "

إنه يوم مشهود من أيام مصر الخالدة ، فعلى أبواب القاهرة وقف « السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقدراى الصالحى » ، ومعه رجالات الدولة ، يحيط به القاضى تاج الدين ، والوزير والعلماء والأعيان ، والشهود والمؤذنون ، ومن خلفه الشعب المصرى بمختلف طوائفه وطبقاته ، يستقبلون أبا القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله ، عم الخليفة العباسى المستعصم بالله ، الذى قتله التتار فى بغداد ، وأخو الخليفة المنتصر بالله كذلك .

ودخل موكب أبى القاسم العباسى من باب النصر ، يحيط به بيبرس ورجال دولته ، والشعب يهتف ويهلل تحية للسلطان ولضيف مصر العظيم .

وفى يوم الاثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ - ١٣ يونيو ١٢٦١م جلس السلطان ومعه ابو القاسم فى الديوان بقلعة الجبل ، ومن حولهما القاضى والوزير والأمراء ، وأعلن القاضى أن أبا القاسم من بنى العباس وأنه ابن الظاهر بن الناصر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفى العباسى ، وأشهد على ثبوت هذا النسب العباسى الشريف ، وكان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام ، ثم السلطان بيبرس ، ثم القاضى تاج الدين ، ثم الأمراء ورجال الدولة ، ولقب المستنصر بالله .

وسار الخليفة بعد ذلك فى موكب جليل والأمراء بين يديه ، والناس حوله ، وشق القاهرة ،والمؤذنون يؤذنون على المنابر ، والخطباء يخطبون باسمه ، وضرب اسم الخليفة على الدراهم والدنانير ، وكتب بيبرس ببيعة الخليفة إلى جميع الأقاليم والجهات ، وأنزله هو وحاشيته وخدمه فى قصر ضخم بقلعة الجبل .

وفى يوم الجمعة ١٧ رجب ٦٥٩ هـ : ١٧ يونيو ١٢٦١ م ركب الخليفة فى موكبه الجليل ، وتوجه إلى مسجد القلعة فصعد المنبر ، وخطب خطبة ذكر فيها شرف البيت العباسى،ودعا للسلطان بيبرس،ثم نزل فصلى بالناس .

وفى يوم الاثنين ٤ شعبان ٦٥٩ هـ - ٣ يوليو ١٢٦١ م ركب الخليفة والسلطان والقاضى والوزير والأمراء وكبار رجال الدولة ،ونزلوا فى ظاهر القاهرة فى سرداق ضخم ؛ وقام الخليفة ،فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء ، وطوقا فى عنقه من ذهب ، وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه من بلاد ، ولقبه باسم أمير المؤمنين ، ثم ركب السلطان،وعاد إلى القاهرة فى موكبه بهذه الأبهة، فشق شوارع القاهرة التى لبست أعظم زينة .

كان الخليفة العباسى معتقلا فى سجن هولاكو ثم ، أطلق سراحه ، فسار من العراق ، قاصدا الظاهر بيبرس ؛ ولقبه الظاهر بالخلافة ، واستمد منه السلطة على العالم الإسلامى ، وصار للخليفة نفوذ روحى على العالم الإسلامى كافة ، أما النفوذ السياسى فقد اختص به سلاطين مصر وحدهم . وبذلك انتقلت الخلافة الإسلامية إلى القاهرة،وأصبحت مصر حامية العالم

الإسلامى وتراث المسلمين، بعد مصرع الخلافة العباسية فى بغـــداد بنحو ثلاث سنوات .

ومن عجيب الأمر أن الخليفة العباسى رأى أن يذهب على رأس جيش مصرى لتخليص بغـداد من حكم التتار ، فجهز له السلطان جيشا ضخما ، وأعد له المعدات والأموال اللازمة ، وسار السلطان مع الخليفة والجيش إلى دمشق فدخلوها يوم الاثنين ٧ من ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ ـ ٤ أكتوبر عام ١٢٦١ م ، ومكثوا فيها حتى صلوا الجمعة ، ثم سار الخليفة إلى بغداد ، ورجع السلطان إلى مصر ، وفى معركة نشبت بين الخليفة ونائب هولاكو قتل الخليفة المستنصر ، وقتل من الجيش عـــدد غير قليل ، وذلك فى ٣ من المحرم عام ٦٦٠ هـ ـ ٢٩ نوفمبر ١٢٦١ م .

وقد عاد الظاهر بيبرس بعد ذلك فدخل حلب ، وهـدد التتار على حدود العراق تهديدا كبيرا ، وبيبرس كان له فضل تنظيم الجيش المصرى ، وإعادة إنشاء البحرية المصرية ، وقد حارب الصليبيين فى الشـام واستولى على كثير من حصونهم ، وسار بجيش عظيم إلى نهر الفرات ، وعبره على ظهور الخيل، وأوقع الهزيمة بالمغول ، وطردهم من تلك الجهات ،وانتصر على حلفائهم فى أرمينية كذلك وغنم غنائم كبيرة ، وقد غزا بيبرس النوبة وفرض عليهـا الجزية ، وبذلك أصبح ملك مصر فى عهده يمتد من أعالى الفرات والأناضول إلى حدود السودان فى الجنوب [1] . . .

---

(١) وكان الحجاز يحكمه ولاة من قبل سلاطين مصر المماليك (ص ٢٠٣ ـ ٢١٢، ج ٢ شفاء الغرام للفاسى) .

ولا ننسى انتصارات بيبرس الساحقة على قوات « أباقا خان » بن هولاكو على نهر الفرات عام ٦٧١ هـ ، وحول مدينة مشهورة فى بلاد الروم تسمى ابلستين عام ٦٧٦ هـ ، واستمرت المعارك بين التتار ومصر مستمرة فى الشام ، وخاصة فى عهد قلاوون [١] ، ومنها معركة « مجمع المروج » فى ٢٧ ربيع الأول ٦٩٩ هـ - ٢٢ ديسمبر ١٢٩٩ م ، التى انتصر الجيش المصرى فى أولها ، والتتار فى آخرها . . وسوى ذلك من المعارك المجيدة التى انتصر فيها جيش مصر انتصارات خالدة . .

---

(١) ومنها معارك عام ٦٨٠ هـ التى هزم التتار فيها هزيمة ساحقة عند حمص وقد استولى قلاوون على قلعة الروم عام ٦٩١ هـ لممالأتها للمغول .

مصر تحرر فلسطين

فتعود دولة عربية من جديد

— ١ —

اليوم هو يوم الجمعة الخامس عشر من جمادى الاخرة عام ٦٩٠ هـ ، ١٥ يونيو ١٢٩١ م ، إنه يوم خالد فى تاريخ مصر والعروبة والإسلام .

فى هذا اليوم الميمون دخل الجيش المصرى معقلا حصينا ، هو آخر معاقل الصليبيين فى أرض فلسطين العربية العزيزة ، وحرر أرض فلسطين من فلول الصليبيين ، وأعادها دولة عربية من جديد ، تخدم الحضارة ، وتؤثل للعلم والمدنية صروحا خالدة .

إنه يوم خالد فى تاريخ الوطن العربى، إنه انتصار جليل لهمغزاه فى تاريخ فلسطين العربية الحرة المناضلة طول عصور التاريخ .. لقد استولى الصليبيون على أرض فلسطين ، وظنوا أنهم استولوا عليها إلى الأبد ، وحكموها حكما صليبيا غاشما ، حتى عادت من جديد مرة أخرى دولة عربية حرة مستقلة ، بفضل مصر وجيش مصر ، وبفضل أبنائها الأحرار البواسل ، وبفضل كفاح أبناء العروبة والإسلام أجيالا مديدة .

— ٢ —

لقد قامت الحروب الصليبية بعد مجمع «كايرمنت» وبحماسة البابا اربان الثانى ، وإجابة لاستنجاد الكسيوس أمبراطور القسطنطينية بدول الغرب المسيحى حين هددت دولته من السلاجقة المسلمين [١] ، قامت

---

(١) ص ٨٩ مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لعنان.

الحروب الصليبية تلبية للشعور الديني المسيحي فى أوربا ، وتحقيقا لمطامع البابوية ، وكسبا لمغانم مادية ، ورغبة فى القضاء على الإسلام ، والأخذ بثأر أوربا المسيحية من الشرق الإسلامي وشعوبه .

وعبرت الحملة الأولى سهول الأناضول عام ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م ، وفتحت أنطاكية فى العام نفسه ، واختير بوهمند النورمندى ملك جنوب ايطاليا أميرا عليها وعلى ما يليها ، واحتل الصليبيون بيت المقدس فى شعبان ٤٩٢ هـ - يوليو عام ١٠٩٩ م ، وقتلوا أكثر من سبعين ألفا من أهلها ، وكتبوا إلى البابا يهنئونه بقولهم : « إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين إلى ركبتيها » ، واختاروا جودفرى ملكا على بيت المقدس يوم عيد الميلاد لعام ١١٠٠ م ، ولقب نفسه حامى قبر المسيح ؛ وكان جيش الصليبيين حينذاك مليونا من المحاربين ، وأخضع الصليبيون المدن الباقية فى فلسطين ، وأنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند دوق تولوز .

لنذكر جيداً يوم ٢١ شعبان عام ٤٩٢ هـ - ١٤ يوليو ١٠٩٩ م ، هذا اليوم الحزين ، الذى استولى الصليبيون فيه على بيت المقدس ، وأجروا فيها الدماء أنهارا فى خلافة المستظهر العباسى فى بغداد والمستعلى الفاطمى فى القاهرة ؛ ثم استولى الصليبيون على أكثر سواحل الشام ، فملكوا يافا ، وغيرها من القلاع والحصون ، ثم أخذوا حيفا ، واستولوا بعد ذلك على عكا عام ٤٩٧ هـ - ١١٠٣ م ، ثم احتلوا مدن الشام ، ومنها طرابلس وبيروت وصيدا عام ٥٠٣ هـ - ١١١٠ م .

إن أرض الشام قد نهبت ، ونهبت كذلك أرض فلسطين العزيزة الحرة ، واختفت البلاد المقدسة من عداد أملاك المسلمين .

وتعددت الحروب والمعارك بين مصر والصليبيين ، حتى جاء دور صلاح الدين الأيوبى فى المعركة ، فأخذ منهم الكرك ، ثم انتصر عليهم فى حطين فى يوم السبت ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ - ٥ يوليو عام ١١٨٧ ، ثم فتح عكا وفتح بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ من رجب عام ٥٨٣ هـ - ٢ سبتمبر عام ١١٨٧ ، وأظهر تسامحا ولينا مقرونين بالشفقة والرحمة نحو فقراء الصليبيين ونسائهم وأطفالهم ، حتى إنه ترك لهم أربعين يوما لإخلاء المدينة، وفك أسر ملك بيت المقدس بعد أن أقسم ألا يحاربه ، ولم يبق للصليبيين من إماراتهم وممتلكاتهم سوى صور .

حررت مصر وحرر جيش مصر وسلطانها صلاح الدين مدينة بيت المقدس من أيدى الصليبيين بعد أن حكموها قريبا من مائة عام أو على وجه التحديد واحدا وتسعين سنة ؛ كما حرر باقى مدن فلسطين ومنها عكا وكثير من مدن الشام.. وإثر واقعة أرسوف التى انتصر فيها رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا عقد صلح الرملة عام ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م ، وبمقتضاه تركت بيت المقدس فى يد صلاح الدين ، وترك ساحل الشام من صور إلى يافا فى أيدى الصليبيين ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت عكا مركزا سياسيا للصليبيين بدل بيت المقدس ، وامتد أجل بقاء الصليبيين فى أرض فلسطين مائه سنة أخرى ، أما أملهم فى الاستيلاء على بيت المقدس فقد تبدد نهائيا ؛ ووجه الصليبيون همتهم نحو مصر قلب العروبة والإسلام ، ولكنهم فشلوا فى حملاتهم الصليبية المشهورة عليها فى عهد سلاطين الأيوبيين .

وفى عهد المماليك هاجم المغول التتار الشام وزحفوا نحو مصر ، فردهم قطز عنها بانتصاره عليهم فى موقعة عين جالوت فى يوم الجمعة ٢٥ رمضان عام ٦٥٨ هـ - ٤ سبتمبر ١٢٦٠ م .

وكان الصليبيون فى سواحل فلسطين إذ ذاك يوالون المغول ، لذلك جرد بيبرس عليهم حملات كبرى ، فحارب إماراتهم نحو عشر سنين ، واستولى فى غضونها على صفد ويافا عام ٦٦٦ هـ - ١٢٦٨ م ، ثم على أنطاكية وغيرها من حصونهم المنيعة .

وكذلك ظل الملك المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) يجرد عليهم الحملات الحربية ، مع حروبه الكثيرة ضد المغول .

ثم خلفه فى الحكم ابنه صلاح الدين الأشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ : ١٢٩٠ - ١٢٩٣م) ، وكان شجاعا مقداما مظفرا عادلا ، وقد اهتم الأشرف اهتماما كبيرا بالقضاء على الإمارات الصليبية فى فلسطين ، لتعود أرض فلسطين من جديد عربية حرة عزيزة .

لذلك أعد الأشرف جيشا ضخما عام ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م لفتح عكا ، فحاصر هذه القلعة الحصينة ورماها بالمنجنيق ، وضيق عليها الحصار أربعين يوما ، حتى سقطت فى يده يوم الجمعة ١٥ جمادى الآخرة عام ٦٩٠ هـ - ١٥ يونيو ١٢٩١ م ، وفر كثير من الصليبيين فى سفن حربية إلى قبرص ، وقتل منهم كثيرون ، وغنم الجيش المصرى غنائم ضخمة ، وحرر هذه المدينة الخالدة بعد أن أخذها الصليبيون من صلاح الدين يوم الجمعة ١٧ شعبان عام ٥٨٨ هـ - ٢٩ اغسطس ١١٩٢ م .

— ٣ —

ولما فتحت عكا ألقى الله الرعب فى قلوب الصليبيين فى سواحل الشام، فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها الجيش المصرى ، وهرب أهل مدينة صور فدخلها جيش مصر . . وقطع الأشرف دابر الصليبيين من المشرق ، وبهذا انتهت الحروب الصليبية التى أقلقت الشرق الأدنى فى نحو قرنين من الزمان .

ولقد كان للمماليك فضل إنهاء الحروب الصليبية ، وكان لهم فضل الدفاع عن مصر والاحتفاظ بحريتها من الغزو المغولى المدمر .

فقطز بطل موقعة عين جالوت ، وبيبرس الذى هزم التتار فى معارك عديدة ، والذى أخذ أنطاكية من الصليبيين . وقلاوون الذى انتصر انتصارات ساحقة على الصليبيين ، وأخذ اللاذقية وطرابلس من الصليبيين عام ٦٨٨ هـ ، والأشرف الذى دمر الحصون الصليبية فى سواحل الشام ، وحرر فلسطين بعد احتلال صليبى طويل دام نحو قرنين من الزمن .

هؤلاء الملوك الأبطال جديرون بالذكر والخلود .

— ٤ —

إن أوربا لم تسكت لطرد الصليبيين من سواحل الشام ، فقد أرادت التحالف مع مغول إيران ضد مصر ، فيسير إليها التتار والصليبيون من جديد بجيوشهم لخنقها واحتلالها ، من أجل ذلك بعث البابا نقولا الرابع إلى ارغون خان ملك المغول يدعوه إلى العمل لانتزاع الأرض المقدسة من يدى مصر ، مؤيدا ومعاونا من ملوك أوربا ، كما دعا البابا نفسه ملوك أوربا إلى التعاون مع كيخا توخان، الذى ارتقى عرش إيران بعد أرغون خان،

للقضاء على مصر واحتلالها ، لكن هذا البابا مات أثناء ذلك فى ربيع الثانى ٦٩١هـ - أبريل ١٢٩٢م ، كذلك تبودلت الرسائل بين البابا بونيفاس الثامن والأيلخان غازان خان لعقد محالفة مع ملوك أوربا ضد مصر وسلاطين مصر وإعادة فلسطين بعد احتلالها إلى المسيحيين ، وقد دعا هذا البابا نفسه إلى حرب صليبية جديدة عام ٦٩٩هـ — ١٣٠٠ م ، وشاركه ملوك أوربا دعوته لإنقاذ الأراضى المقدسة بالاستعانة بمغول إيران ، واهتموا اهتماما ظاهرا بتنصير هؤلاء المغول الوثنيين ، ولكن غازان خان أمبراطور المغول كان قد آثر اعتناق الإسلام ، فأسلم فى ٤ شعبان عام ٦٩٤هـ ، ١٩ يونيو عام ١٢٩٥م ، ومع ذلك فلم ينس غازان خان فكرة التحالف مع أوربا الصليبية ضد مصر ، فراسله ملك أرغون وملك فرنسا بخصوص إعادة غزو الأراضى المقدسة ، ولما غزا « غازان خان » سوريا أرسل جيمس الثانى ملك أرغونة كتابا يهنئه فيه ، ويقول له : إنه يود أن يعلم هل يوافق غازان خان بعد أن تنضم إليه قوات أرغونة على أن يعطيه خمس الأراضى المقدسة وغيرها من البلاد التى تفتح بعد ذلك .

ولكن أحلام أوربا لم تتحقق ، لضعف الأمل فى استرداد الأرض المقدسة ، ولانشغال ملوك أوربا بمشاكلهم الخاصة ، وانصرافهم عن أمور الشرق مضطرين ، لذلك عاد ملك أرغونة يتودد إلى ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١هـ : ١٢٩٣ - ١٣٤١م) ، ويرسل إليه الكتب ، لعقد أواصر الصداقة بينهما ، ولحسن معاملة أهل أرغونة من التجار المترددين على مصر ومن الحجاج أيضا ، وحماية المسيحيين فى دولة المماليك . وكان امبراطور القسطنطينية ميشيل باليولوغوس الثامن مشغولا بحماية

دولته من اعتداءات العثمانيين ، لذلك أرسل إلى السلطان قلاوون كتابا يطلب فيه مودته ، كما أن اندرونيك الثانى الذى خلف أباه على عرش القسطنطينية أرسل إلى السلطان محمد بن قلاوون السفراء يحملون الهدايا كى يعامل المسيحيين الشرقيين من أبناء مذهبه فى مملكته معاملة تنطوى على العطف واللين ، ورفض أن يعاون فى الحملة الصليبية التى وضع خطتها مارينو سانودو بعد سقوط عكا ؛ كما كانت علاقات أمبراطور القسطنطينية بملوك المغول كذلك حسنة [١] .

وقد كان نجاح مصر فى المحافظة على الأراضى المقدسة سببا آخر من أسباب فشل أوربا فى إعداد حملة صليبية جديدة ، وكان سبب هذا النجاح وقوف مصر فى وجه التتار على حدود الشام ، مما لم يتمكن معه المغول والتتار من صنع شىء لمعاونة أوربا فى إعادة الأراضى المقدسة إليها [٢] .

— ٥ —

إننا لن ننسى يوم الجمعة ١٥ جمادى الآخرة عام ٦٩٠هـ ـ ١٥ يونيو عام ١٢٩١ م .

هذا اليوم الخالد الذى حررت فيه مصر أرض فلسطين إلى الأبد من الاستعمار الصليبى الأوربى ، وأعادت فيه فلسطين لأهلها من العرب ، بعد استعمار صليبى طويل للأرض المقدسة دام نحو قرنين من الزمان ، ولم تعد أوربا لاحتلال فلسطين إلا بعد انتصار الحلفاء فى الحرب الكبرى ، حيث وضعتها عصبة الأمم تحت وصاية انجلترا .

---

(١) راجع ٦٣ ـ ٢٠٣ كتاب مغول إيران بين المسيحية والإسلام ـ مصطفى طه بدر ـ دار الفكر العربى .

(٢) راجع ٧٤ ـ ١٢٠ المرجع السابق .

وفى عام ١٩٤٨ سلمتها انجلترا لليهود ليقيموا فيها دولة صهيونية تحقق أحلامهم القديمة فى مملكة صهيون .

إن الاستعمار الصهيونى لأرض فلسطين ليس له من العمر اليوم إلا تسع سنوات ، إنه لم يمتد مائتى عام كالاستعمار الصليبى البائد .

وإن مصر وجيش مصر وكل عربى ومسلم ، لابد أن سيعاونون على تحرير فلسطين ، وإعادتها مرة أخرى إلى أبنائها اللاجئين والمغتربين .

يا أبناء فلسطين العزيزة : لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، لقد صبر أجدادكم مائتى عام ، حتى حرر أرضكم جيش مصر من الاستعمار الصليبى ، فاصبروا وصابروا ، فسوف تحرر مصر وجيش مصر والشعوب العربية بلادكم من الاستعمار الصهيونى ، ولن يمتد هذا الاستعمار بإذن الله . . .

الجيش المصرى فى بغداد

اليوم هو يوم الخميس ٦ من ذى الحجة عام ٧٩٦ هـ ٣ اكتوبر ١٣٩٤ م.
إنه يوم النصر والمجد لمصر وللشعوب العربية المتحررة المكافحة على طول الأجيال .

فى هذا اليوم الخالد استقبلت بغداد سلطانها أحمد بن أويس ، والجيش المصرى العظيم ، الذى حررها من الطغيان والعبودية للتتر ، ولسلطان التتار تيمور لنك المخرب الكبير .

فى هذا اليوم ابتسمت بغداد بعد أن ظلت كئيبة حزينة أياما طوالا ، ذكرت فيها نكبتها الأولى على يدى هولاكو المخرب التترى الفظيع .

فى هذا اليوم كان الجيش المصرى قد قضى على مقاومة جيوش التتار فى بغداد قضاءا مبرما ، وأعاد إليها سلطانها الشرعى أحمد بن أويس .

وكان تيمور لنك قد قضى على المدينة من قبل قضاء مبرما واحتلها احتلالا طاغيا مخربا ، وسكنت المدينة على الذل والطغيان ؛ حتى حررها وحرر العراق كله من يد التتار وتيمور لنك جيش مصر .

وتيمور لنك من نسل جنكيزخان ، وقبره لا يزال إلى الآن فى سمرقند ومن حوله مقابر أسرته ، وسمرقند عاصمة جمهورية أزباكستان الروسية اليوم.

وكان تيمور لنك قائدا عاما لجيوش السلطان غياث الدين ملك هراة ، وصهرا له ، ثم اغتصب السلطة منه ، واستولى بعد ذلك على خراسان وأصبهان

والى وفارس وكرمان بعد حروب طويلة ، وبقيت بغداد وسلطانها أحمد بن أويس تنام على القتاد ، وتنتظر يوما مشئوما حالك السواد ، وكان السلطان أحمد قد ملك بغداد بعد التتر ، فأخذ يجمع جيوشه لمقاومة الغزو التترى الجديد ، ولكن تيمور لنك خادعه وأظهر له المودة والمصانعة ، حتى هدأ السلطان وسرح جيشه ، وبلغ ذلك تيمور لنك ، فنهض بجيشه إلى بغداد ، يسرع السير على غفلة من السلطان ، وانتهى إلى دجلة ، وبلغ السلطان فى بغداد النبأ المفزع ، فهرب من بغداد حاملا أمواله وذخائره ، وسار إلى مدينة « مشهد على » .

وفى ١٠ من ذى الحجة عام ٧٩٥ هـ - ٤ أكتوبر ١٣٩٣ م دخل تيمور لنك المدينة المفزعة ، واستولى عليها ، وعاث فيها فسادا ونهبا وتدميرا وإحراقا وقتلا ، وصادر قصور السلطان أحمد وأمواله ، ونهب المدينة ، وقتل من شاء من أهلها المسالمين الوادعين ، أطفالا ونساءا ، وشبانا ورجالا وكهولا ، وأرسل جيشا إلى « مشهد على » حيث أخذها واستولى على أموال السلطان وأسر أسرته وحاشيته وقتل القواد الذين كانوا يحمون المدينة ، ولكن السلطان كان قد هرب إلى الرحبة على حدود الشام وهى فى حكم سلطان مصر ، فتلقاه حاكمها بالترحاب ، وأنزله ضيفا عليه ، وأرسل بخبره إلى سلطان مصر العظيم الظاهر برقوق ، وكان الظاهر ملكا عظيما (٧٨٤ هـ-٨٠١ : ١٣٨٢ - ١٣٩٩ م) قد خطب باسمه فى الموصل وماردين وسنجار ، وضربت باسمه السكة فى كل هذه البقاع ، ودان الملوك والأمراء له بالطاعة ، وفى عام ٧٩٤ هـ - ١٣٩٢ م أخذ

« يوسف بن قرامن » أمير التركمان بالمشرق مدينة تبريز وأرسل بمفاتيحها إلى السلطان الظاهر ، فأقره نائبا عليها ..

وعلم الظاهر بأمر سلطان بغداد ، فطلبه لينزل فى ضيافته .

وفى يوم الثلاثاء ١٠ ربيع الأول ٧٩٦هـ - ١٤ يناير ١٣٩٤م وصل سلطان بغداد إلى خارج القاهرة ، وخرج الظاهر ورجالات الدولة لاستقباله خارج أسوار المدينة ، وتلاقى العاهلان لقاء الأخوة ، وأمر برقوق الأمراء أن تمشى فى موكب سلطان بغداد ، وبالغ فى إكرامه وتعظيمه . وقص سلطان بغداد على مسامع عاهل مصر قصص التتار وصنيع تيمور لنك فى العراق وبغداد وفى بلاد العجم من قبل ، ونبأه بأن تيمور لنك سيرسل رسلا يطلبون من مصر تسليم سلطان بغداد إليه ، فكتب برقوق إلى نائبه على « الرحبة » بأن يقتل كل القادمين من رسل تيمور لنك وعيونه.

وطلب سلطان بغداد من عاهل مصر أن يبعث معه بجيش مصرى لاسترداد بغداد ، ولإنقاذ أهلها من طغيان التتار ، فلبى برقوق طلبه ، وأعد جيشا مصريا ضخما لإنقاذ بغداد دار السلام من حكم التتار ، وإعادة سلطانها الشرعى إلى عرشه .

وفى يوم الخميس ٥ شعبان عام ٧٩٦ هـ - ٥ يونيو ١٣٩٤ خرج الظاهر ومعه سلطان بغداد ، على رأس جيش مصرى ضخم ، متوجها نحو الشام ، ونزل الظاهر دمشق ، وفيها أعاد إعداد الجيش المصرى وتنظيمه ، وبعث بقوة ضخمة منه مع سلطان بغداد لاسترداد المدينة من أيدى التتار .

وزحف الجيش المصرى على أرض العراق ، وكان تيمور لنك آنذاك مشغولا بحصار ماردين ، ولم يستول عليها إلا بعد وقت طويل ، ولكن قلعتها ظلت مع ذلك تقاوم جيوشه ، حتى يئس من تسليمها ، وامتنعت عليه ؛ فارتحل عنها إلى آسيا الصغرى وبلاد الأكراد فى شمالى العراق .

واستمر الجيش المصرى فى زحفه حتى دخل بغداد ، بعد أن حطم مقاومة التتار العنيفة تحطيما كاملا ، ورفعت راية مصر مع راية السلطان أحمد على بغداد ، وضربت النقود فى دار السلام باسم السلطان برقوق ، وقام الجيش المصرى بحماية المدينة ، وأقام برقوق بالشام فى جيوش ضخمة يترقب تيمور لنك وجيشه لنزالهم .

وعلم تيمور لنك بالأمر ، فلم يجرؤ على منازلة جيش برقوق ، وعاد من آسيا الصغرى إلى خراسان دون أن يحاول اقتحام الشام أو بغداد ، وذلك لعلمه بقوة الجيش المصرى واستعداده الضخم العظيم .

وهكذا حررت مصر بغداد من طغيان تيمور لنك وطغيان جيشه .

وبعث تيمور لنك إلى برقوق برسالة تهديد ووعيد وإنذار ، وقرئت الرسالة على برقوق ، فردا عليها رداً حاسماً قوياً عنيداً جاء فيه :

« أبعد أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين[1] ، تطلبون منا طاعة ؟ لا سمعاً لكم ولا طاعة ، لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات

---

(١) يريد الخليفة العباسى الذى كان بمصر ، وهو الخليفة المعتصم (٧٩١ — ٨٠١ هـ) — ص ٦٠ ج ٢ حسن المحاضرة .

يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا » . . وألقى الله الرعب في قلب تيمور لنك من برقوق ، فسكت ولم يبد حرا كا .

إن مصر والشام والعراق وبعض أطراف بلاد العجم تعيش فى حماية مصر ، وسلطان مصر ، وجيش مصر . آمنة مطمئنة ، ولم تعد تحفل بالتتار ولا بجيوش تيمور لنك المخرب الأعظم (١) .

وبعد سنوات معدودات توفى الظاهر برقوق فى ١٥ شوال ٨٠١ — ٣١ يونيو ١٣٩٩ م ، وخلفه ابنه الملك الناصر فرج بن برقوق ؛ وبلغ الخبر تيمور لنك ففرح واستبشر ، وأنعم على من بلغه نبأ وفاة برقوق بنعم كثيرة،وأخذ تيمور لنك يعد الجيوش ليقصد بها بلاد الشام والروم، ولينتقم من جيش مصر ، مصر التى قتل سلطانها رسله ، والتى أعادت سلطان بغداد أحمد بن أويس إلى عرشه فى بغداد .

وفى عام ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م رحل تيمور لنك بجيش ضخم يبلغ أكثر من نصف مليون على تقدير بعض الروايات ، ونزل بحلب فى ١٠ ربيع الأول ٨٠٣ هـ — ٣٠ أكتوبر ١٤٠٠ ، واستولى على المدينة ودمرها ؛ ولم ينس تيمور لنك أن يعقد مناظرة (٢) مع علماء المدينة التى تهتز جوانبها من الأشلاء والدماء ، ثم حاصر قلعة حلب (٣) فاستسلمت له ، فدمرها ، وتركها متوجهاً إلى دمشق .

---

(١) راجع فى ذلك ص ٥٠ — ٥٦ ج ٢ الفتوحات الإسلامية لدحلان .

(٢) راجع ص ٥٦ — ٥٨ ج ٢ المرجع السابق .

(٣) السلوك فى دول الملوك للمقريزى — مخطوطة دار الكتب ج ٣ ورقة ٢٣ .

وكان ملك مصر وسلطانها الناصر فرج بن برقوق قد أسرع بالخروج إلى الشام ،لرد التتار المدمرين عنها ، ومعه الخليفة العباسى المتوكل على الله، وعلماء من مصر ، وابن خلدون المؤرخ العظيم [١] ، ونزل فرج بدمشق .

وفى ١٠ جمادى الأولى ٨٠٣ هـ — ٢٨ ديسمبر ١٤٠٠ م وصلت جيوش تيمور لنك إلى أطراف دمشق ، ونهبت المدينة ، وكان فرج قد أخلاها لتعذر الدفاع عنها . ثم عاد تيمور لنك إلى حلب وأحرقها ، ومنها قصد بغداد واستولى عليها ودمرها . . ولكن السلطان الناصر أعاد بعد قليل دمرداش الخاصكى نائباً من قبله على حلب ، فأخذ يعيد تعمير المدينة وبناءها من جديد .

إن جيش تيمور لنك لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة بعد دمشق ، وما لبث الجيش المصرى أن استرد المدن التى أخذها التتار ، وطردهم منها، وعادت تستظل من جديد براية مصر ، وتعيش فى حماية الجيش المصرى الباسل . .

هذا فى الوقت الذى شتت تيمور لنك فيه شمل الدولة العثمانية، وهزم جيشها وأسر ملكها بايزيد العثمانى فى ١٧ من ذى الحجة عام ٨٠٤ هـ - ١٩ يوليو ١٤٠٢

---

(١) راجع مقابلة ابن خلدون لتيمور لنك فى دمشق فى كتاب ابن خلدون لعنان — ص ٨٢ و ٨٣ ط ١٩٣٣ .

وفى عام ٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م عقد تيمور لنك صلحا بينه وبين مصر ، وصار بينه وبين سلطان مصر هدنة ومودة وسلام ، وأرسل تيمور إلى فرج هدية وفيلا [١] .

ان مصر أكدت سيادتها فى هذه الأيام العصيبة فى تاريخ الشرق الإسلامى ، وقد حمت كثيراً من بلاد المسلمين من تدمير التتار ، ومع ذلك فقد انتصرت على التتار فى معارك كثيرة ، ولم تهزم جيوشها أمامهم فى معركة فاصلة .

إن مصر هى حامية حرية الشعوب منذ أجيال عديدة .

---

(١) راجع ٥٠ — ٦٢ ج ٢ الفتوحات الإسلامية لدحلان .

الملك الأسـير

اليوم هو يوم الاثنين ٧ شوال عام ٨٢٩هـ، ١٢ أغسطس عام١٤٢٦. والقاهرة تحتفل بالنصر، الجيش المصرى يحتل جميع الميادين، والشعب من ورائه ، وملك قبرص يسير مع أركان حربه فى شوارع القاهرة ، حيث جيء به أسيرا ، وطيف به على مرأى من الشعب فى العاصمة المصرية الجميلة .

إن قبرص [١] كانت طوال التاريخ القديم قاعدة عسكرية لأعمال الاعتداء الصليبى ضد مصر والشرق العربى ؛ ولا تزال إلى اليوم كذلك ، فمنها تحركت حملة الاعتداء البريطانى الفرنسى على بور سعيد فى آخر أكتوبر عام ١٩٥٦

إن القاهرة عام ٨٢٩ هـ كانت تحتفل بتحطيم هـذه القاعدة الحربية الكبيرة ، التى طالما استخدمت ضد مصر والمصريين فى العصور الوسطى، وها هو ذا ملكها الأسير وأركان حربه يسيرون مطرقى الرؤوس فى شوارع عاصمة مصر التى تحتفل بالنصر ، والشعب يهتف بمصر وبمجد مصر وعظمة شعب وادى النيل .

---

(١) لا ننسى أن قبرص خضعت للحكم الإسلامى فى بعض الأحيان ، فقد فتحتها البحرية الإسلامية فى عهد معاوية ، وكان فى الجيش الفاتح: أبو الدرداء وأم حرام بنت ملحان الصحابية التى دفنت فى الجزيرة ، وقد بلغ خراج الجزيرة بعد عام ٢٠٠ هـ نحو أربعة ملايين ونصف (ص ٣٠٠ تاريخ القطبى) .

وبعد أن ينتهى المطاف بالملك الأسير يؤتى به إلى قصر السلطان فى القلعة ، سلطان مصر ، الملك الأشرف برسباى سيف الدين أبى النصر (٨٢٥ - ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) ، فيسلم على برسباى . ويحدثه برسباى عن شئون الحرب والسلام ، وعن علاقات مصر وقبرص السياسية وعن شتى الشئون التى تشغل بال الرأى المصرى العام ، وكان برسباى عاقلا مدبرا سياسيا رزينا جديراً بمنصبه العظيم ، سلطانا لمصر العظمى ، ولشعبها حامى التراث الإسلامى المجيد .

يرجع هذا الفتح الكبير إلى أن برسباى بلغه عام ٨٢٦ هـ أن قبرص استخدمت من جديد كمركز لعمليات عسكرية واسعة النطاق تدار ضد مصر والمصريين ، فأخذ برسباى يستعد عسكريا على شواطىء مصر : دمياط والاسكندرية وسواهما ، وفى عام ٨٢٧ هـ بعث بسفن استطلاعية حطمت كثيرا من الاستعدادات والسفن الحربية فى موانى قبرص ، وعادت بأسرى يبلغون نحو الألفين .

وفى عام ٨٢٨ هـ قامت سفن بحرية ابرسباى بالهجوم على سفن تابعة لأسطول قبرص وانتصرت عليها انتصاراً كبيرا ، ووالى الأسطول المصرى السير إلى قبرص عن طريق طرابلس ، ونزل جنود الجيش والأسطول المصرى إلى أرض الجزيرة ، محطمين كل مقاومة ، واستولوا على كثير من الغنائم ، ثم عادوا دون خسائر تذكر ، بعد أن دكوا حصون الجزيرة ، وخربوا موانيها البحرية تخريبا تاما .

وبعد أن عاد الجيش المصرى إلى مصر ، عاد ملك قبرص يستنجد

بأمراء أوربا وملوكها لمحاربة مصر وجيشها فأمدوه بالسلاح والمال والجنود والسفن ، وبلغ برسباى الأمر فعبأ الجيش والأسطول وندب الشعب للجهاد، وأعد أسطولا بحريا ضخما مكونا من مائة سفينة ، وركب الجيش السفن متوجهين فى أوائل شعبان عام ٨٢٩هـ إلى جزيرة قبرص ،فأرسى الأسطول بميناء الجزيرة ونزل الجيش المصرى فاحتل كثيرا من قواعدها الحربية ، ودعا قائد الجيش ملك قبرص إلى الاستسلام والطاعة فأبى وقتل الرسول، فهاج قواد مصر وجنودها البواسل لمقتل الرسول المصرى ، ونازلوا جيش ملك قبرص نزال الأبطال ، ودارت الدائرة على الملك الصليبى ، وأراد الهرب فركب ، ثم وقع عن فرسه فأركبوه ، فوقع ثانيا ، فأركبوه فكبا به الفرس ، وفر جنده من حواليه ، ورآه بعض الجند المصرى فأسروه ، وتتبع جيش مصر فلول المنهزمين ، الذين حاولوا الهـــرب فى السفن من الجزيرة ، واستولى الجيش المصرى على كثير من سفن أسطول قبرص ، وحمل ملك الجزيرة أسيراً إلى القاهرة .

وفى القاهرة عرض الملك أن يعود إلى عرشـه على أن تكون الجزيرة خاضعة لسيادة مصر ،وعلى أن يكون الملك نائبا عن برسباى فيها ، ويؤدى لمصر جزية سنوية قدرهـا مائتا ألف دينار ، يدفع نصفهـا قبل إطلاق سراحه ، ووافق برسباى .

وأقلت سفينة من سفن الأسطول المصرى الملك الأسير ليعود حاكما على الجزيرة تحت حماية جيش مصر وأسطول مصر وسلطان مصر ،والمجد لمصر [1] .

---

(١) ٦٢ ــ ٦٤ جـ ٢ الفتوحات الإسلامية لدحلان ــ وقد أكد الأسطول المصرى مرة أخرى لعام ٨٦٦ هـ سيادة مصر على الجزيرة (٦٤ : ٢ دحلان) .

موكب السلطان فى الحرمين (١)

اليوم هو الخميس ١٥ شوال عام ٨٨٤ هـ - ٣٠ ديسمبر عام ١٤٧٩ م والقاهرة تحتفل بموكب السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ : ١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) ، فى رحلته السعيدة إلى الحجاز لزيارة الحرمين الشريفين ، وللاطلاع على أحوال رعيته فى الحجاز ، ولأداء فريضة الحج المباركة ، وكان الشعب فى شوارع القاهرة يهتف لقايتباى ، ويدعو له بالعمر المديد ، والعود السعيد .

وأقام السلطان قايتباى الأمير شيبك الدوادار نائباً عنه بمصر ، وسافر بعد المحمل المصرى بثلاثة أيام ، وكان أمير الحاج المصرى هو الأمير « خوشقدم » ، وكان نائب قايتباى فى حكم الحرمين هو السيد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، وكان قاضى القضاة فى مكة هو برهان الدين ابراهيم بن ظهير الشافعى . وكان قايتباى قد أبطل جميع الضرائب والمكوس فى الحجاز ، وأمر بنقش هذا المرسوم على أسطوانة من أسطوانات الحرم الشريف فى باب السلام ، وفى عام ٨٧٤ هـ أمر ببناء مسجد الخيف ، وبتعمير مسجد نمرة فى عرفة ، وبإصلاح العيون فى عرفات وفى طريقها . وفى عام ٨٧٩ هـ أهدى قايتباى إلى المسجد الحرام منبراً خشبياً ركب فى باب السلام فى ٢٥ من ذى القعدة عام ٨٧٩ هـ ، وخطب عليه الخطيب فى أول ذى الحجة ، وفى سنة ٨٨١ هـ أمر بإصلاح خشب سقف المسجد

---

(١) راجع ٢٠١ — ٢٠٧ من تاريخ القطبى .

الحرام بالرواق الشرقي ، وغير رخام الحجر الشريف ، وفي عام ٨٨٢ هـ أمر قايتباى ببناء مدرسة بجوار الحرم يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة ، على أن يبنى بجوارها رباط يسكنه الفقراء ، ومكتب لتحفيظ القرآن الكريم ، واختير للمدرسة أربعة أساتذة للمذاهب الأربعة ، وأربعون طالبا يتعلمون فيها ، وأنشئت في المدرسة مكتبة علمية كبيرة بعث قايتباى بكتبها من القاهرة ، ووكل قايتباى الإشراف على إتمام ذلك إلى الأمير سنقر الجمالى الذي أتم هذه المنشآت قبل وصول قايتباى بقليل .

وخرج والي الحجاز من قبل قايتباى ، وهو شريف مكة السيد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ، ومعه قاضى القضاة والعلماء والأشراف والأعيان لاستقبال السلطان .

وكان قايتباى قد وصل الحوراء ، فقابله السيد محمد بن بركات في الحوراء مرحبا محييا ، وصنع له الموائد الكبرى ، ومد له سماط حلوى هناك ، فجلس عليه السلطان بنفسه ، وأظهر غاية اللطف والتواضع مع الجالسين معه على السماط .

ووصل ركب السلطان إلى ينبع ، ومنها توجه إلى المدينة لزيارة الرسول صلوات الله عليه ، فقدم المدينة عند طلوع الفجر من يوم الجمعة ٢٢ من ذى القعدة ٨٨٤ هـ - ٥ فبراير ١٤٨٠ م ، فنزل عن فرسه عند باب سور المدينة ، ومشى على قدميه في شوارعها ودخل المسجد حتى وقف حيال الروضة النبوية الشريفة ، وسلم ودعا ، ثم زار قبري أبي بكر وعمر ، وصلى بالروضة ، ثم استراح في المدينة حتى صلى الجمعة في الصف الأول

فى الروضة النبوية الشريفة مع الشعب الحجازى ووفود الحجاج ، وكان الى جانبه الشيخ برهان الدين بن الكركى . وبعد الصلاة زار قبر حمزة وقبور الصحابة والشهداء فى أحد ، وهو يمشى على قدميه ، حتى خرج من باب المدينة .

وفى المغرب صلى فى الروضة ، وظل فيها حتى أقيمت صلاة العشاء ، فأداها ، وعرض عليه عالم المدينة الشيخ السمهودى منع بعض البدع من المدينة فأمر قايتباى بمنعها فورا ، ثم طلب منه رفع المكوس عنها ، فأمر برفعها ، وجعل لأمير المدينة من خزانة مصر ألف أردب قمح كل عام . ووزع السلطان على علماء المدينة وفقهائها وعلى الشعب فيها أكثر من ستة آلاف دينار من الذهب .

وأقام بالمدينة يومين ، وفى اليوم الثالث خرج منها متوجها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج .

وكان أمير مكة السيد محمد بن بركات ومعه أعيان الشعب الحجازى والأشراف فى انتظار السلطان حول بدر ، وتلاقى ركب الأمير بركب السلطان ، فتصافحا وسار الأمير على يمين السلطان ، وقاضى القضاة على يساره ، ورجالات الدولة حولهم ؛ وأخذ السلطان المصرى يلاطفهم ويحادثهم ، ويسأل عن أحوالهم ، ويشكر حسن استقبالهم له ، ويقضى طلبات الشعب الحجازى ، واستمر الأمر على ذلك حتى وصل السلطان إلى « وادى مر الظهران » ؛ فأنعم عليهم بالخلع الفاخرة ؛ وفى صبح يوم الأحد أول ذى الحجة

٨٨٤ هـ – ١٣ فبراير ١٨٤٠ م استراح السلطان فى وادى مر الظهران ، ومد له سماط واسع ، فأكل هو وحاشيته ووجوه مستقبليه ، ووزع على حاشيته العسكرية الطعام ، وأحسن إلى الخدم والعمال ، ووصل بعد قليل كثير من القضاة والخطباء والأعيان من مكة لتحية السلطان والسلام عليه .

ثم ركب السلطان ، ومعه ابن ظهيرة قاضى القضاة وإمام السلطان ، والعلماء والوجهاء والحاشية ، حتى دخل الموكب مكة من أعلاها .

وتقدم قاضى القضاة لتطويف السلطان ، وأخذ يلقنه الأدعية والتلبية إلى أن دخل السلطان من باب السلام ، ومشى والمرتلون بين يديه يقرأون : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، وجعل من دون ذلك فتحا قريبا ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » .

ورفع العلماء أيديهم يدعون للسلطان ، والشعب الحجازى والحجاج من حوله يؤمنون على هـــذا الدعاء ، وطاف السلطان المصرى ، وقبل الحجر الأسود ، والفقهاء من أعلا قبة زمزم يدعون له ، والناس محيطون بالمطاف يشاهدون ويدعون ، ثم صلى السلطان خلف مقام ابراهيم ؛ ثم خرج من باب الصـــفا إلى الصفا ، وسعى ، ومعه قاضى القضاة يلقنه الدعاء ، ثم عاد إلى « الزاهد » ، وبات فى مخيمه ؛ وفى الصباح نهض فركب فى موكبه ، وكان فى انتظاره أمير مكة وأولاده وقاضى القضاة والخطباء وأعيان الناس ورجالات مصر والحجاز ، فأنعم السلطان على

الكثيرين بالخلع السنية ، ومشى الناس أمام الموكب السلطانى العظيم ، ووقف أهل مكة حتى الأطفال والنساء يشاهدون هذا الموكب الخالد ، وسار السلطان حتى دخل مدرسته فافتتحها ، ومد له أمير مكة فيها سماطا جليلا ، وأقام فى المدرسة يتلقى أخبار مصر ، ويصرف شئون الحجاز ، ويتصدق على الفقراء ، ويقضى حاجات الناس .

ومن المدرسة طلع إلى عرفات ومعه الإمام السلطانى ، والأمير شيبك الجمالى ورجال الحاشية السلطانية ، ووقف قايتباى بجبل الرحمة متضرعا داعيا ثم أفاض مع الناس ، وأتم الحج ، وفرق الأضاحى ، وعاد بعد أيام التشريق إلى مكة ، وسافر الركب المصرى ، وتأخر هو بعض الوقت ؛ ثم رتب شئون مدرسته ، واعتمد مرتبات أساتذتها وطلابها وموظفيها ، وجعل لكل واحد كفايته ، وكتب بذلك وقفية أشهد فيها على نفسه ، وصنع خيرات كثيرة لم يصنعها أحد ، وحضر بنفسه يوم الجمعة إلى المدرسة ،وأخذ يقرأ القرآن مع المقرئين ، ودعا الناس له ، ومد للحاضرين سماطا كبيرا . وفى ظهر يوم السبت ١٤ من ذى الحجة ٨٨٤هـ - ٢٧ فبراير ١٤٨٠ طاف السلطان طواف الوداع ، والفقهاء تدعو له على قبة زمزم ، ثم ودع مكة وودعته ، وركب معه الأمير والحاشية والأشراف إلى الزاهر ، وعاد إلى وطنه مصر ، واستقبلته القاهرة استقبال الفاتحين .

إن دولة قايتباى الممتدة كانت تحبه ؛ لأنه كان من أكثر الملوك عدلا وحبا للرعية وصنعا للخير ، وتقريبا للعلماء ، حتى ليقول بعض المؤرخون: إن أيامه كانت « كالطراز المذهب ، ودولته كالعروس فى حلل الجوهر

والذهب ، وعاشت الرعية فى أيامه عيشا رغدا » .

ولقد عاش الحجاز تحت نفوذ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، إلا أنه لم يشاهد سلطانا عادلا رحيما كقايتباى ، وقايتباى أول من أدى فريضة الحج من سلاطين مصر ، وكان شعبه فى مصر وفى الحجاز وفى اليمن وفى الشام يحبه ويقدره ويبادله وفاء بوفاء .

وكان قايتباى رحمه الله معظما للعلماء ، مشاركا فى كل نهضة علمية أو دينية ، يستمع لوعظ الواعظين ، ونصح الناصحين ، حدث شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى قال : ما كان أحد يصبر على كما كان يفعل قايتباى ، كنت أنال منه فى الخطبة ، حتى أظن أنه لن يكلمنى بعد ذلك قط ؛ فأول ما أخرج من الصلاة يتلقانى ويقبل يدى ويقول : جزاك الله خيراً . ولقد أغلظت له القول مرة فاصفر لونه ؛ فتقدمت إليه وقلت : والله يا مولانا إنما أفعل ذلك شفقة عليك ، وسوف تشكرنى عند ربك ، وقلت له مرة : أعرف أيها الملك نفسك ؛ فقد كنت عدما فصرت وجودا ، وكنت رقيقا فصرت حرا ، وكنت مأمورا فصرت أميرا ، ثم صرت ملكا كبيرا ، فلما صرت ملكا تجبرت ، ونسيت مبدأك ومنتهاك [١] . وكان قايتباى كذلك يعظم الشيخ عبد القادر الدشطوطى ويقبل يديه [٢] ؛ وكان كذلك ينزل إلى بلقين ، فيزور الشيخ عبيد البلقينى ، فلما انتقل إلى القاهرة صار يتردد عليه [٣] .

---

(١) ١٢ /٢ الطبقات الكبرى للشعرانى .
(٢) ١٢٥ /٢ المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه .

وكان عهده على الجملة عهد خير ومجد وسلام ورفاهية للشعب المصرى .

ولا ننسى حادثتين خطيرتين وقعت إحداهما فى عهد قايتباى ، وهى سقوط غرناطة وانتهاء حكم الإسلام فى الأندلس عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م [١] دون أن يمد قايتباى يده لمعاونة المسلمين فيها [٢] .

والحادثة الأخرى وقعت قبل حكم قايتباى ، وهى استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م ، وقد اهتز العالم الإسلامى بخبر هذا الفتح ، وأرسل سلطان مصر الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أنيال العلائى (٨ ربيع الأول ٨٥٧ - ٨٦٥هـ : ١٤٥٣ - فبراير ١٤٦١م) يهنىء بهذا الفتح العظيم ، كما أرسل ملوك العالم الإسلامى يهنئون بهذا النصر المبين .

---

(١) راجع كتابى : قصة الأدب فى الأندلس ــ خمسة أجزاء.

(٢) قد يكون ذلك سبب خوف قايتباى من بايزيد العثمانى ملك العثمانيين (٨٨٦ ــ ٩١٨هـ) خاصة ، وأن بايزيد كان قد أعد فى ربيع الثانى ٨٩٣ ــ ٩١٨ مارس ١٤٧٨ حملة حربية بقيادة على باشا لمحاربة المصريين ، وأن العثمانين كذلك كانوا يستعدون سرا لفتح مصر.

المقاومة الشعبية الباسلة

الاستعمار التركى :

قضى السلطان سليم على الإمبراطورية المصرية عام ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م باستيلائه على مصر ، وقتله السلطان الغورى ثم طومان باى ؛ وقد أخذ يستولى على تراث مصر السياسى والدينى والفكرى .

فأصبح سلطان تركيا يحكم مصر ، ويحكم جميع الشعوب التى كانت تخضع لسلطان المماليك ونفوذهم ، خضعت للعثمانيين : الشام والحجاز واليمن والنوبة ، وأقاليم المغرب العربى . وخضعت لهم كذلك جزيرة قبرص التى كانت تدين بالطاعة لمصر ، وتؤدى الخراج لملك مصر [١] .

ونقل سليم الخلافة الإسلامية من مصر إلى تركيا ، وصار السلاطين العثمانيون يلقبون أنفسهم بلقب خليفة المسلمين ، فقد أخذ سليم معه الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله وابنا للغورى إلى القسطنطينية ، فلما توفى سليم عام ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م عاد المتوكل إلى مصر وأقام بها حتى توفى عام ٩٥٠هـ ، وبموته انتهت الخلافة العباسية ، وصارت خلافة المسلمين فى سلاطين تركيا العثمانيين ، إلى أن قضى على الخلافة فى تركيا كمال أتاتورك عام ١٩٢٤ م .

---

(١) ص ٣٠٠ — تاريخ القطبى .

ومن الجهة الثقافية والفكرية قضى الفتح العثمانى لمصر على الحركة العلمية والأدبية ، وأخذ سليم العلماء والفنانين والصناع المصريين معه إلى القسطنطينية إمعانا فى القضاء على نفوذ مصر الفكرى كما قضى على نفوذها السياسى والدينى ؛ وبذلك تقلص ظل الازدهار العلمى ، وهجرت العلوم ، ونقلت مكتبات مصر الكبرى إلى استامبول .

مرج دابق والخيانة العسكرية :

وكانت موقعة « مرج دابق » قرب حلب فى ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ - ٢٤ يوليو ١٥١٦م هى مقدمة زوال دولة المماليك ، وفقدان مصر استقلالها وامبراطوريتها ، فى هذه المعركة قتل الغورى وضاع أكثر الجيش المصرى .

ولم يفقد الجيش المصرى السيطرة على المعركة عن ضعف فى استعداده العسكرى أو فى قوته المعنوية ، ولكن لخيانة قائدين من كبار قواده ، هما خير الدين بك ، وجان بردى الغزالى بك ، وهما من الجراكسة ، وكانا يحقدان على الغورى ، وكان أولهما قائد الميمنة فى موقعة مرج دابق ، والآخر قائد الميسرة ، وقد فاوضا سليما أثناء المعركة على أن يسلما جيوشهما إليه ، على أن يتولى خير الدين حكم مصر ، ويتولى الآخر حكم الشام ، تم ذلك ، وانسحبا بجيوشهما إلى معسكر سليم ، وبقى الغورى وحده ومن معه من الجيش المصرى فى القلب يحاربون حتى سقط الغورى قتيلا تحت أرجل الخيل ، وسلمت مدينة حلب نفسها لسليم وجيشه ، ولم ينج إلا القليل من الجيش المصرى ، وبايع الأمراء فى القاهرة طومان باى ابن أخى الغورى بالسلطنة فى القلعة فى ٤ رمضان ٩٢٢ هـ - ١٢ أكتوبر ١٥١٦ م .

لماذا حارب سليم مصر :

لم يكن هناك من سبب لحرب العثمانيين لمصر ، وكان الغورى يحب السلام ويحرص عليه ؛ وكان طول حكمه (١٥ من ذى القعدة ٩٠٦ - ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ : ٣ يونيو ١٥٠١ - ٢٤ يوليو ١٥١٦ م) مهموما حزينا .

ففى بدء حكمه انتقلت التجارة الخارجية إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وفقدت مصر مكانتها التجارية العالمية واقتصادياتها الواسعة بذهاب إيراداتها من رسوم التجارة بعد تحويلها إلى طريق رأس الرجاء ، وحاول الغورى أن يحمى استقلال الهند ، ليمنع البرتغاليين من استعمارها واستغلال مرافقها والتجارة معها، فعقد معاهدة صداقة بينه وبين ملك العجم إسماعيل شاه ، وأرسل أسطولا بحريا ضخما لطرد البرتغاليين من الهند ، وإعادة التجارة إلى طريق مصر ، ولكن هذا الأسطول دمر فى مياه المحيط الهندى أثناء اشتباكه مع قوات البرتغال البحرية ، فترك الغورى تجديد الأسطول المصرى لفقدان ميزانية الدولة مواردها الضخمة التى كانت تعتمد عليها من رسوم التجارة ؛ حتى إن كبار الشيوخ المصريين كالشيخ شمس الدين الدمياطى المتوفى عام ٩٢١ هـ كان يعيب على الغورى تركه للاستعداد العسكرى ولحرب أعداء مصر والإسلام ، وكان الغورى يقول له : كيف نجاهد وليس لنا أسطول نجاهد به ، فقال له شمس الدين : عندك المال الذى تبنى به الأسطول (١) .

---

(٤) راجع ١٦٤ و ١٦٥ جـ ٢ الطبقات الكبرى للشعرانى .

ولما تولى سليم العثمانى الحكم فى بلاده فى آسيا الصغرى عام ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م ، أخذ يستعد لحرب مصر للقضاء على دولتها العظمى ، لأن مصر حمت بعض إخوة سليم الفارين إليها ممن كانوا يناوئون سليما ويطمعون فى الملك وأبت أن تردهم إلى سليم ، ولأنها أثناء حرب سليم لسلطان العجم اسماعيل شاه قطعت مواد التموين التى كانت ترسل من مصر إلى العثمانيين، ولما أراد سليم غزو مصر استفتى مفتيه عن حكم أمة تساعد أعداء الإسلام ضد سلاطين بنى عثمان ، وتزوج بناتها من الكفار - يريد المماليك الشراكسة وهم مسلمون لا كفار - ، وتنقش آيات من القرآن على نقود يتدوالها المسلمون وسواهم ، فأجاب مفتيه جمال الدين من استامبول بحرب هذه الأمة [١] ، وخرج سليم بجيش يبلغ ١٥٠ ألفا ، وخرج الغورى من مصر بجيش كثيف ، وهزم جيش مصر ، واستولى سليم بعد ذلك على الشام ، ثم تقدم إلى مصر .

القضاء على القوات العسكرية :

وقضى سليم على مقاومة مصر العسكرية بقيادة سلطانها طومان باى ، ودخل القاهرة يوم الاثنين ٣ محرم ٩٢٣هـ - ٢٦ يناير ١٥١٧ من باب النصر ، وفى ١٢ محرم ٩٢٣ هـ - ٥ فبراير ١٥١٧ قتل سليم طومان باى وشنقه على باب زويلة ، وأسرف فى قتل المماليك ، ونهب جيشه القاهرة ، وأعمل فى أهلها السيف [٢] ، وسليم أثناء ذلك مقيم بالروضة بجوار النيل فى قلعة عالية

---

(١) راجع ٢٠٩ : ج ٢ قصة الأدب فى مصر - للمؤلف .

(٢) ممن قتلهم العثمانيون الشيخ محمد الرويجل العريان من كبار الصوفية فى مصر (١٢٨ : ٢ الطبقات الكبرى للشعراني ، و ١٤١ التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر) .

أقيمت له ، وزار سليم الإسكندرية ومدن مصر الكبرى ويده الملطخة بدماء المصريين يأنف أى مصرى أن يصافحها ، ثم سافر إلى القسطنطينية فى ٢٣ شعبان ٩٢٣ هـ — ١١ سبتمبر ١٥١٧ م ، مشيعاً بلعنات مصر وبكائها ، وأقام الخائن الجركسى خير الدين بك نائباً عنه بمصر ، وكان يلقب بنائب السلطنة وملك الأمراء . .

لن ننسى :

إننا لن ننسى — نحن أبناء هذا الشعب الخالد — شهر يوليو الذى وقعت فيه « معركة مرج دابق » ، والذى ضرب فيه الأسطول الإنجليزى - بعد ذلك بأجيال - مدينتنا الجميلة الإسكندرية ، كما لا ننسى ٢٦ يناير عام ١٠١٨م الذى أحرقت فيه العاصمة بأمر الحاكم ، و ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ الذى أحرقت فيه العاصمة بأمر فاروق .

ثورة الشعب ضد جلاديه :

وحكم الأتراك مصر ، ولكن الشعب لم يعترف بحكامه ومستعمريه ، قاومهم ؛ واحتقرهم ، وصبر على ظلمهم ، وفى عام ٩٢٨ هـ توفى خير الدين بك نائب السلطنة بمصر ، واستراح الشعب من استبداده وظلمه وسفكه للدماء ، وتوفى قبله السلطان سليم جزار معركة مرج دابق فى ٩ شوال ٩٢٦ هـ — ٢٣ سبتمبر ١٥٢٠ م ، وثار بعد ذلك الشعب المصرى عام ٩٣١هـ على نائب السلطان أحمد باشا وعصى عليه أهل القلعة ،واستولوا عليها وقتلوا من فيها من عسكر السلطان ، وأعلنوا العصيان ونهبوا الأموال

التى جمعها أحمد باشا ظلماً وبهتانا ، ثم قتلوه وقطعوا رأسه وطافوا بها فى العاصمة ثم بعثوا بها إلى القسطنطينية ، وهى أول ثورة شعبية بعد الاحتلال التركى بست سنوات ، وتوالى الولاة على مصر حتى ولى داود باشا حكم مصر عام ٩٤٥ هـ — ١٥٣٨ ، وروح المقاومة الشعبية تزداد قوة ، والشعب يعلو بكبريائه الوطنى على حكم الاستبداد ، وعلى السفاحين العثمانيين الأنذال .

ثورة جديدة :

إن اليوم هو ١٥ شعبان عام ٩٥٠ هـ — ١٣ نوفمبر عام ١٥٤٣ م ، وهذه هى القاهرة تسخر من واليها سخرية الغضب والانتقام .

إن داود باشا الوالى التركى الذى استهتر بكرامة مصر ومقوماتها ، فصادر الأموال ، وأزهق الأرواح ، واعتقل الأبرياء ، يسير فى موكبه فى القاهرة مزهواً فخوراً ، والجند من حوله شاهرو السيوف ، متأهبون للدخول فى أية معركة مع هذا الشعب الذى علمته أحداث التاريخ أعمال البطولة والكفاح .

وينبرى لداود باشا ـ وهو فى موكبه ـ شيخ مصرى جليل ، وزعيم من زعماء الحرية الخالدين ، الذين أنجبتهم مصر ، وعلمتهم أسمى أعمال الكفاح ، إنه شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى ؛ يقف مواجها لداود باشا ، والشعب المصرى وراء زعيمه العظيم ، ثم يقول له :

— من الذى أعطاكم ياداود تفويضاً باستعمار شعب مصر واستعباده ؟ من الذى أذن لك بسفك الدماء ومصادرة الأموال ، ونشر الاستبداد فى بلادنا ؟

— داود باشا : ماذا تقول أيها الإنسان ، لا بل الحيوان .

— الشيخ : أنت تعرف جيداً ما أقول ، أقول من الذى جعل لك حق حكم هذا الشعب الذى فطر على الحرية والإباء ؟

— داود باشا : أتكرر ذلك مرة ثانية ؟

— الشيخ : إنك ياداود مملوك رقيق ، ولا يجوز لك أن تتولى الأحكام، وإن أحكامك باطلة ، فارجع إلى سيدك ، واسأله أولا أن يحررك ؛ ثم تعال فاحكمنا كما تريد .

— داود باشا : إنك فلاح حقير ، ويهم بضرب الشيخ بالحسام .

— الجنود : إياك أيها الوالى أن يمس الشيخ منك أى أذى ، إنه شيخ شيخ الإسلام الإمام .

إن الشعب يشاهد ساخرا ما حدث لداود باشا فى هذا اليوم الخالد ، وعاد داود باشا إلى القلعة بموكبه الرسمى ، وهو يتميز من الغيظ . وبعثه بما حدث للسلطان العثمانى فى القسطنطينية .

وجاء بعد أيام رد السلطان ؛ قرار من السلطان ينعم فيه على واليه بالعتق ، وأمر منه إلى الوالى بتبليغ الشكر إلى الشيخ ، وسعى الباشا إلى الشيخ فى داره واسترضاه ، وقبل يديه ، وطأطأ ليقبل رجليه ، وعرض على الشيخ مالا ، فأعرض عن ذلك .

وهكذا علم هذا الإمام حكام مصر السادرين فى غيهم أن مصر لاتنام ، وأنها للطغاة بالمرصاد .

وبعد شهور مات الزعيم الوطنى الجليل الإمام الشيخ ابن عبد الحق ، وبكته مصر أحر البكاء ، مات فى صفر عام ٩٥١ هـ ، بعد أن لقن المحتل درسا لا ينسى ، وعلمه أن شعب مصر حى لا يمكن أن يستعبد أو يستعمر أبدا (١) .

إن ذكرى عبد الحق لتدفعنا إلى أن نطالب برفع اسم سليم من الشارع المسمى باسمه فى مصر الجديدة ، إن ذلك تكريم ، وإن الشعب لا يقبل أن يكرم أى محتل غاصب ، إنما يكرم المدافعون عن حرية الوطن .

من ثم كان تكريم طومان باى - باطلاق اسمه على أحد شوارع « الزيتون » - عملا وطنيا جليلا ، وبقى أن يقام لطومان تمثال ، يرمز إلى جهاده واستشهاده فى سبيل بلاده . والمجد لمصر ...

إن مقاومة الشعب المصرى للطغاة لم تسكت فى يوم من الأيام ، ومظهر هذه المقاومة هو شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى المصرى الأزهرى الخالد الذكر فى تاريخ الوطن الإسلامى .

كان السنباطى عالماً جليلا ، وإماما عظيما ، ومصرياً كريماً ، وكان

---

(١) راجع ترجمة الشيخ ابن عبد الحق فى ١٦٤ و ١٦٥ ج ٢ الطبقات الكبرى للشعرانى ، وذخيرة الأعلام للعمرى (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٠٤ تاريخ ، والكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ، مخطوط ج ٢ ص ١٨٢ ، والأزهر فى ألف عام ، و ١٣٧ التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر و ٣٠٣ — ٣٠٨ فى ظلال الإسلام .

واعظاً بالجامع الأزهر ويذكر أمين سامى عنه أنه كان شيخ الجامع الأزهر [١] ، وقال الإمام الشعرانى عنه : « لم نر أحداً من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله ، كان إذا نزل من فوق الكرسى يقتتل الناس عليه ، وكان متفنناً فى العلوم الشرعية ، وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب المجتهدين ، وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، واشتهر فى أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم ، حتى إنه لما مات أظلمت مصر لموته ، وانهدم ركن عظيم من الدين ».

كان السنباطى ملاذ الشعب المصرى المغلوب على أمره ، وكان يهدد الوالى التركى بإعلان الثورة عليه كلما تحزبت الأمور ، واشتد ظلم الأتراك للشعب . وكان القضاة الأربعة الذين ولاهم سليم على مصر عام ٩٢٣ هـ ، وهم : قاضى القضاة كمال الدين الطويل قاضى الشافعية ، وقاضى القضاة نور الدين على بن ياسين الطرابلسى قاضى الحنفية ،وقاضى القضاة الدميرى المالكى قاضى المالكية ،وقاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن النجار الحنبلى قاضى الحنابلة، كانوا لا يستطيعون مجابهة الوالى التركى بشىء ،فكان السنباطى يعظ ويزجر ويحذر وينذر ويوعد ،فيسمع له ، فإن لم يستمع الوالى لنصحه هدد بإعلان الثورة .

وكان السنباطى يلقب بشيخ الإسلام ،وهو لقب كان قبل الفتح العثمانى لمصر يطلق على قاضى القضاة الشافعى . وقد كان آخر من لقب بهذا اللقب

---

(١) تقويم النيل ج ٢ ص ١٩ .

من الشعب المصرى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن على المتوفى عام ٩٤٩ هـ ، فلما ألغى الترك نظام القضاء المصرى ، وأقاموا فى رياسة القضاء قاضياً تركياً أصبح هذا اللقب يطلق على ما نرجح على مشايخ الأزهر ، وعلى الرغم مما يذهب إليه كثير من المؤرخين من أن أول شيخ للأزهر هو الشيخ محمد عبد الله بن على الخرشى المالكى المتوفى عام ١١٠١ هـ ، فإننا نرجح أن السنباطى كان هو أول شيخ عرفه التاريخ للأزهر الشريف ، إن منصب « شيخ الأزهر » على ما نرجح يبدو أنه يرجع إلى أواسط القرن العاشر ، وأنه منصب جديد جاء بعد سلسلة التغييرات التى أحدثها الأتراك العثمانيون فى الوظائف الدينية الكبرى [1]. وقد كان لشيخ الأزهر السنباطى نفوذ كبير بلغ مبلغ الرياسة ، وكان له رأى بارز فى معظم الحوادث والشؤون الداخلية ، وكان يعد الممثل الأول للشعب .

وهكذا عاش السنباطى إماماً عظيما ، وشيخاً جليلا ، ومؤدياً لرسالة الإسلام ، ووليًا من الصالحين ، حتى توفاه الله فى آخر عام ٩٥٠ هـ ، فهل تذكر أول شيخ للأزهر ، وأول من قاوم بطش العثمانيين ، وأول زعيم للمقاومة الشعبية فى أوائل الفتح العثمانى لمصر ، والذى كسب بجهاده العرب والإسلام والمسلمون مجداً وشرفا لا يعادلها مجد أو شرف ؟

إن السنباطى من أعلام الإسلام وأئمته الخالدين ، الذين سجل التاريخ أسماءهم على صفحاته ، قدوة للأجيال ، ومفخرة لشعوب الإسلام .

---

(١) راجع ص ١٤٥ ج ١ الأزهر فى ألف عام ـ للمؤلف.

الشعب صاحب السيادة

اليوم يوم الاثنين ٥ جمادى الأولى عام ١٢٠٠ هـ — ٦ مارس عام ١٧٨٦ م .

إن القاهرة فى هذا اليوم تعلن الثورة على الحاكمين الظالمين .

الوالى التركى محمد باشا يكن مقيم فى القلعة ، ومعه الجند التركى والموظفون ، وهو صاحب السلطان الرسمى فى مصر .

والأمراء المماليك مقيمون فى قصورهم فى القاهرة ، وزعماؤهم معروفون ، وفى مقدمتهم : إبراهيم بك ، ومراد بك ، وبيد هؤلاء السلطان الفعلى على الشعب .

والأزهر وعلماؤه فى جانب ثالث ، وعلى رأسهم الشيخ الدردير والشيخ العروسى ، والشيخ المصيلحى ، والشيخ عبد الله الشرقاوى، وسواهم، وهم أصحاب النفوذ الروحى فى مصر .

إن سكان حى الحسينية يسيرون إلى الجامع الأزهر ، وفى أيديهم العصى والنبابيت والمدى ، ويدخلون الأزهر الشريف ، ويقابلون الإمام الشيخ الدردير ، ويبسطون له مظالمهم ، والشيخ يستمع متأثراً حزيناً .

قالوا للشيخ : إن حسين بك أحد كبار المماليك فى مصر هاجم بالأمس بخيله ورجله وجنده وسلاحه دار أحمد سالم المتولى الجزار نقيب دراويش الشيخ البيومى ، ونهبها بما فيها من مال وحلى وفرش وثياب

ومقتنيات ، وكان يشاع أن عند الرجل كثيراً من المقتنيات الثمينة ، ووجد حسين بك فعلا فى دار الرجل كثيراً من هذه التحف والأموال ، فنهبها ولم يترك فيها شيئا يقوم بمال وتركها قاعا صفصفاً ، فعل ذلك جهاراً نهارا ، ظلما وعدوانا .

ولم يملك الشيخ الدردير نفسه ، فاحتد وسخط ، وأعلن الغضب من هذا الاعتداء الصارخ على حقوق الشعب وحريته الفردية ، وتألم لاستهتار المماليك وعسفهم وظلمهم ، وقال للشعب الثائر : « أنا معكم ، وغداً نجمع الشعب من الأطراف وبولاق ومصر القديمة والحارات ، وأركب معكم ، وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله » .

وخرج الشعب الثائر من الأزهر هاتفاً بسقوط الظلم والظالمين ، وانتشر الناس فى شوارع القاهرة وأسواقها ، ودعوا جميع سكان القاهرة إلى إعلان الثورة على المماليك الظالمين ، وإلى الإضراب العام التام ، فأغلقت المتاجر ، وتعددت المظاهرات .

وأمر الشيخ بدق الطبـــول على منارات الأزهر إيذاناً بالاستعداد وبإعلان الثورة العامة ، وأغلقت أبواب الأزهر ، سخطا على هذا العمل الإجرامى ، الذى ليس له مثيل .

القاهرة فى ثورة شعبية مخيفة ، ورأى المماليك الخطر الداهم يكاد يبتلعهم ، فاجتمعوا فى الغـــورية ، ثم ذهبوا بجمعهم إلى الشيخ الدردير ، يطلبون من الشيخ تهدئة الشعب ، وإنهاء هـذه الثورة ، واعتذروا عما صنعه أحدهم ، وتعهدوا برد المنهوبات .

إن إبراهيم بك لم يطمئن بعد أن بلغته ثورة الشعب فى القاهرة عليه وعلى المماليك جميعاً ، وكان هو فى القاهرة ، وزميله مراد بك فى الوجه البحرى فى رحلة لجمع الضرائب ، لذلك أرسل نائبه ومعه لفيف من أمراء المماليك إلى الامام الدردير ، يعتذرون له عما حدث ، ويعدون بكف أيدي الأمراء عن أموال الناس ، ويؤكدون أن إبراهيم بك سيوبخ «حسين بك» ويطلبون قائمة بكل ما نهبه ليأمره إبراهيم برد ذلك إلى صاحبه ، فوافق الشيخ الدردير على ذلك ، وقرأ الجميع الفاتحة على ذلك وانصرفوا ، وأعلن الامام الدردير ذلك على رؤوس الأشهاد .

وركب الدردير إلى ابراهيم بك بناء على طلبه ، وأرسل ابراهيم إلى حسين بك يستدعيه ويوبخه توبيخا شديدا ، فرد عليه حسين بك : كلنا نهابون ، أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وأنا أنهب ؛ فرد عليه الشيخ الدردير وابراهيم بك ردا شديداً ، وتعهد برد المنهوبات جملة . وسكتت الثورة .

إن هذه الثورة دليل على قوة الرأي العام وقوة نفوذ الأزهر الروحي في الشعب ، وهى من جهة ثالثة تعبر — تعبيرا واضحا لا لبس فيه — عن سيادة الشعب ، وتؤكد ضرورة احترام الحاكمين لإرادة المحكومين .

ولم يكن الشيخ الدردير زعيم هذه الثورة الشعبية سوى ممثل للشعب ، وقائد لقوات المقاومة الشعبية المنتصرة .

وأكدت هذه الثورة نفوذ الشيخ الدردير فى وسط الشعب ، هذا النفوذ الجبار ، الذى أكدته كذلك حادثة أخرى جديدة :

ففى اليوم العاشر من جمادى الأولى عام ١٢٠٠ هـ . ثار طلبة الأزهر

واعتصموا ببنيانه ، وأخذ طلاب رواق الصعايدة يبطلون الدروس منه ، لأن سفينة كانت قادمة من الصعيد بطعام لبعض طلبة رواق الصعايدة بالأزهر ، فنهبها سليمان بك الآغا ، مدعيا أن له مالا متأخرا عند أولاد «وافى» فى الصعيد . وركب الشيخ الدردير وأعلام علماء الأزهر الشريف فى ذلك الوقت ، وذهبوا إلى إبراهيم بك ، وكلموه كلاما شديدا ، فوبخ سليمان بك ، ورد بعض ما نهبه من الأموال إلى طلبة الأزهر ، وسكنت الحال .

وكذلك كان علماء الأزهر هم ملاذ الشعب وحماته من جور المماليك والأتراك جميعا ، ومن أطرف ما حدث ، أنه قبل ذلك بعشرات السنين أمر السلطانى العثمانى عام ١١٤٨هـ - ١٧٣٥م بقطع المرتبات الخيرية عن مستحقيها ، وجمع الوالى التركى مجلس الديوان لإحاطتهم بالأمر ، ووافق المجلس على ذلك ، وأيد القاضى التركى قرار السلطان ، لأن أمره لا يخالف ، وتجب طاعته ، ولكن الشيخ سليمان المنصورى عارض ذلك بشدة ، قائلا : إن طاعة السلطان لا تكون فيما يخالف الشرع ، وأمر السلطان لا يسلم له ، بل يخالف ذلك ، لأنه مخالف للشرع ، ولا يسلم للإمام فى فعل يخالف الشرع ؛ وكان ذلك مما هدم أمر السلطان ، وأبقى الحالة كما كانت عليه قبل أمر السلطان العثمانى الغريب .

إن الأزهر وعلماءه بحق كانوا خير ملاذ للشعب من الظلم والاضطهاد والعسف والطغيان ، وهذه الثورة الشعبية من أسبق الثورات الدستورية العالمية .

الشعب يعلن ميثاقا بحقوق الإنسان

اليوم هو يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى القعدة عام ١٢٠٩ هـ — ١٨ يونيو عام ١٧٩٥م ، يوم خالد فى تاريخ مصر ، إن مؤتمراً شعبيا ضخماً عقد فى الأزهر الشريف ، وحضره العلماء ، وكان زعيم المؤتمر هو شيخ الإسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى .

إن المؤتمرين يبحثون حقوق الشعب وحقوق الإنسان الأساسية وحقوق المواطن المصرى ، ويتكلمون فى كل ذلك بصراحة ، لا يخافون بطش أمير ، ولا اضطهاد حاكم ، ولا غضب إنسان .

إن علماء الأزهر يتشاورون فى الأمر ، ويقررون أخيرا الإصرار على مقاومة الأمراء بالقوة ، حتى يجيبوا مطالب الشعب ، ويعترفوا بحقوقه الأساسية ؛ ويقررون كذلك تعطيل الدراسة فى الأزهر ، وإعلان الإضراب العام فى القاهرة ، وغلق الأسواق والحوانيت ، حتى تجاب مطالب الشعب ، أو يدخل الشعب فى حرب طاحنة مع الأمراء المماليك .

إنها الثورة الشعبية المدمرة على الطغاة المستبدين . كل ذلك ولم يكن قد مضى غير عدة شهور على وصول الحاكم التركى « صالح باشا القيصرلى » إلى مصر . إن الثورة تكاد تقتلع جذور حكم المماليك والأتراك جميعا من مصر .

أما سبب ذلك كله فيرجع إلى جشع المماليك ، فأتباع محمد بك الألفى جاروا على قرية الشيخ عبد الله الشرقاوى ببلبيس من أعمال الشرقية ،

وظلموهم ونهبوا أموالهم، وعذبوهم بحجة تحصيل الضرائب الأميرية، أخذوا أقوات الفلاحين ومواشيهم وأموالهم ، ولم يتركوا لهم شيئا ؛ وجاء وفد كبير من أهل القرية إلى الشيخ الأكبر الشيخ عبد الله الشرقاوى ثائرين ساخطين ، يبلغونه ما حدث فى قريته الخضراء المسالمة الوديعة . وذهب الشيخ الجليل الشرقاوى إلى مراد بك وابراهيم بك وبلغهما ما حدث ، فلم يعيرا الأمر أدنى التفات ، لقد طلب منهما ألا يؤخذ من هؤلاء الفلاحين ، المساكين أكثر مما عليهم للحكومة ، وأن يكفا أذى الألفى وأعوانه عنهم فلم يفعلا شيئا .

واجتمع الشرقاوى والعلماء والشعب فى الأزهر آخر الأمر ، واتخذوا ما اتخذوه من قرارات خالدة .

وفي يوم الجمعة أول ذي الحجة عام ١٢٠٩هـ - ١٩ يونيو ١٧٩٥ م ركب الشرقاوى ومعه العلماء ووراءهم جماهير الشعب والفلاحون إلى منزل الشيخ السادات ، يستشيرونه فى الأمر ، وازدحموا أمام الباب ، وكان قصر إبراهيم بك قريبا من قصر الشيخ السادات ، فشاهد إبراهيم بك بعينيه هذه المظاهرة الوطنية الضخمة ، وأفزعه الأمر إلى حد كبير . وبادر إبراهيم بك فأرسل أيوب بك الدفتردار ليسألهم عن مظلمتهم وشكواهم وطلباتهم ومرادهم ، وخاطب الدفتردار العلماء فقالوا له :

— نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

— ورد الدفتردار قائلا : لا يمكن الإجابة إلى هذا كله ، إننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا أرزاقنا ومعايشنا ونفقاتنا .

— ورد العلماء قائلين : هذا ليس بعذر عندالله ، وماالباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ .

— فقال لهم الدفتردار بك : أمهلونى حتى أبلغ . وانصرف دون أن يعود لهم برسالة .

واستمر علماء الأزهر وعلى رأسهم الشرقاوى والسادات فى التصميم على الدفاع عن حقوق الشعب أو الموت دونها ،وسارت المظاهرة من منزل السادات إلى الأزهر الشريف ، وفى الأزهر اجتمع الشعب من كافة الطبقات ، ومعهم العلماء ، وأدوا الصلاة ، ثم باتوا داخل الأزهر الشريف .

وفى صباح يوم السبت الثانى من ذى الحجة ١٢٠٩ هـ — ٢٠ يونيو عام ١٧٩٥م أرسل إبراهيم بك رسله إلى الشرقاوى ، بعد أن بلغه احتشاد الشعب واستعداده لخوض المعركة ضد الأمراء ، يعتذر إلى العلماء عما حدث ويبرئ نفسه ، ويلقى المسئولية على شريكه فى الحكم مراد بك ، ويقول : أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى . وبعث مراد بك كذلك إلى الشرقاوى يقول : كل شىء لكم أجيبكم إليه إلا أمرين : ديوان بولاق ، وطلبكم إعادة صرف ما أخذ منكم من أموال أميرية ، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم ، فذهبوا إليه بالجيزة ، فاستقبلهم استقبالا حافلا ، والتمس منهم السعى فى الصلح .

وفى اليوم الثالث من أيام هـذه الثورة المجيدة . يوم الأحد ٣ من ذى الحجة ١٢٠٩ هـ ذهب الوالى التركى « صالح باشا القيصرلى » إلى منزل إبراهيم بك وعقد اجتماعا عاجلا مع أمراء المماليك ، وقرروا حل الأزمة حلا سريعاً عاجلا دون توان أو إبطاء ، وبعثوا يستدعون العلماء إلى منزل إبراهيم بك ، فحضر الشرقاوى والسادات وعمر مكرم والبكرى والشيخ الأمير وسواهم ، وبدأت المفاوضات لتسوية الأزمة ، وتم الأمر على الصلح ، وعلى موافقة الوالى التركى والأمراء ، على القرارات الآتية :

أولا : أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

ثانياً : ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

ثالثاً : أن لا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الأمة .

وتعهدوا بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس .

وحرر القاضى وثيقة ضمنها هذه القرارات ووقع عليها : الوالى التركى وإبراهيم بك ، وأرسلت إلى مراد بك فختم عليها ، ووقعها كذلك باقى المماليك ، كما وقعها العلماء .

وكانت هذه الوثيقة أول إعلان لحقوق الإنسان فى العصر الحديث ، وقد حدث هذا الإعلان قبل إعلان الثورة الفرنسية لميثاق حقوق الإنسان المشهور بسنوات .

وانتهت الأزمة ، وعاد العلماء الأبطال والشعب يحتفى بهم فى شوارع العاصمة ، وهو ينادى : « حسبما رسمه ساداتنا العلماء فإن جميع المكوس والحوادث والمظالم باطلة من مملكة الديار المصرية »[١] .

إنها أمجاد تاريخية ، استبدت مصر بشرفها ، وسجلها الزمان بمداد من نور ، آية من آيات العبقرية ، وصفحة خالدة من صفحات المجد والحرية والكبرياء . . ولتسلمى يا مصر . . .

---

(١) راجع الجبرتي ج ٢ ص ١٠٣ و ١٠٤ ، والأستاذ أحمد عز الدين خلف الله فى مجلة الأزهر عام ١٣٧٢ هـ ، و ٨٥ و ٩١ ج ١ الأزهر فى ألف عام المؤلف ، ٢٤١ كفاحنا ضد الغزاة .

ملحق بالكتاب

لقاء مع المجد

— ١ —

كانت ليلة خالدة فى تاريخ مصر الحديث ، جمعت بين رائدى النهضة الفكرية والإسلامية فى العالم الإسلامى : محمد عبده وجمال الدين الأفغانى :

كان الأفغانى يومئذ فى الثلاثين من عمره ، وكانت شهرته قد رن صداها فى كل مكان : رائدا مصلحا ، وفيلسوفا حكيما ، وثائرا مجددا ، ومناهضا للاستعمار ، والملكية الاستبدادية ، والفساد السياسى فى الشرق الإسلامى . كان قد أبلى بلاء حسنا فى مقاومة الطغيان السياسى فى إيران والأفغان ، وإذاعة آرائه الثائرة فى الإصلاح والتجديد الدينى ، وكافح الاستعمار البريطانى فى الهند ، فنفته حكومة التاج من الهند على باخرة بريطانية متجهة نحو أوربا . وفى السويس نزل جمال الدين فى أواخر عام ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م ، ويمم وجهه شطر القاهرة ، فأقام فيها أربعين يوما ، تردد خلالها على الجامع الأزهر ، واتصل به كثير من المفكرين والعلماء والطلاب .

وكان محمد عبده آنذاك من أنبه شباب الأزهر ، وأذكى طلابه ، فى نحو الخامسة والعشرين من عمره يمتلىء صدره بأضخم الآمال لوطنه وشعبه العريق فى المجد والتاريخ والنضال . وفى يوم قص عليه طالب سورى فى رواق الشام نبأ قدوم عالم أفغانى عظيم إلى مصر ، وحدثه أنه يقيم فى خان الخليلى ، وأنه يذهب إليه كل مساء حيث يقيم ، فى رفقة بعض الزملاء ،

يتتلمذون عليه ، ويأخذون عنه . . وعجب محمد عبده من الأمر . وأخبر أستاذه حسن الطويل بالقصة ، فاتعدا لزيارة جمال الدين والتعرف به ليلة أول المحرم عام ١٢٨٧ هـ .

ودخلا عليه فوجداه يتناول طعام العشاء ، ورحب بهما ، ثم أخذ يحدثهما فى التصوف والتفسير والمفسرين وأشياء أخرى ؛ وكان بين الحين والحين يصوب بصره نحو محمد عبده ، فيدرك ما كانت تنم عليه نظرته من حيرة وثورة ، وشوق إلى المعرفة ، وإيمان بمستقبل الإسلام والمسلمين ، ولم ينته سمر الثلاثة وحوارهم ليلتئذ ، إلا وقد اطمأن محمد عبده إلى جمال الدين ، ووثق به ، وصمم على ملازمته ، والإفادة من علمه وتفكيره ونزعته المتوثبة الحرة .

وانتهت إقامة الأفغانى فى القاهرة ، وعزم على السفر إلى الآستانة ، بعد أن كانت وجهته الحجاز لأداء فريضة الحج ، وودعه تلميذه محمد عبده وداعا حارا ، والتفت الأفغانى إلى مودعيه يقول لهم : إنى خلفت فى مصر خيرا كثيراً فى علم الشيخ محمد عبده .

وفى الآستانة تعرف جمال الدين برجالات الخلافة وعلمائها ومفكريها ، واختير عضوا فى مجلس المعارف هناك ؛ ولكن الدسائس والوشايات حيكت له ؛ فعاد إلى القاهرة فى أول المحرم من عام ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ؛ واستقبله تلميذه محمد عبده استقبالا يليق بمكانته ، وأخذ يلازمه ليشبع رغبته فى طلب العلم ، ومعرفة كنوز الفلسفة ، وحقائق الحياة . وصار

يدعو زملاءه وأصدقاءه إلى غشيان مجلسه ، والإصغاء لروائع حكمه ، والإفادة من سمو توجيهه .

واندمج جمال الدين فى حياة مصر الاجتماعية والفكرية ، وتردد على دار ابراهيم بك المويلحى فى حارة الأمير حسين بشارع محمد على ، وهى فى ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة . فلما أجرى عليه رياض باشا مرتبا شهريا قدره عشرة جنيهات مصرية ، استأجر منزلا فى حارة اليهود ، وصار بيت الأفغانى مدرسة جامعة ، يقصدها النابهون من طلاب الأزهر ، ويدرس لهم فيها أمهات الكتب فى العقائد والحكمة والمنطق والفلسفة والتصوف وأصول الفقه والفلك والتاريخ ، ولم يكن يقصد من دروسه التعليم فحسب ، بل كان يهدف من ورائها كذلك إلى الدعوة للإصلاح ، وفتح باب الاجتهاد فى الدين والعلم ، وبث الأخلاق العالية فى النفوس ، والتبصير بالشئون السياسية وحقوق الشعب والأمة . وكان إلى هذا يرشد الطلاب إلى مطالعة كتب الأدب لتنضج مواهبهم الأدبية ، وليستطيعوا أن ينهضوا بالأمة عن طريق الكتابة فى الصحف . وعرف طلاب العلم الأفغانى ، واهتدوا إليه ، واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درا ، كما يقول الإمام محمد عبده نفسه ، أيقظ جمال العقول من غفلتها ، ونبه شباب الأزهر إلى ضعف التوجيه فيه ، فألفوا من بينهم جماعة تسعى فى إصلاحه ، وكان أول عمل لهم أن كتبوا منشورا يدعون فيه إلى الإصلاح ، وعلقوه على أعمدة الأزهر فى سواد الليل .

ومقتنيات ، وكان يشاع أن عند الرجل كثيراً من المقتنيات الثمينة ، ووجد حسين بك فعلا فى دار الرجل كثيراً من هذه التحف والأموال ، فنهبها ولم يترك فيها شيئا يقوم بمال وتركها قاعا صفصفاً ، فعل ذلك جهاراً نهارا، ظلما وعدوانا .

ولم يملك الشيخ الدردير نفسه ، فاحتد وسخط ، وأعلن الغضب من هذا الاعتداء الصارخ على حقوق الشعب وحريته الفردية ، وتألم لاستهتار المماليك وعسفهم وظلمهم ، وقال للشعب الثائر : « أنا معكم ، وغداً نجمع الشعب من الأطراف وبولاق ومصر القديمة والحارات ، وأركب معكم ، وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله » .

وخرج الشعب الثائر من الأزهر هاتفاً بسقوط الظلم والظالمين ، وانتشر الناس فى شوارع القاهرة وأسواقها ، ودعوا جميع سكان القاهرة إلى إعلان الثورة على المماليك الظالمين ، وإلى الإضراب العام التام ، فأغلقت المتاجر ، وتعددت المظاهرات .

وأمر الشيخ بدق الطبول على منارات الأزهر إيذاناً بالاستعداد وبإعلان الثورة العامة ، وأغلقت أبواب الأزهر ، سخطا على هذا العمل الإجرامى ، الذى ليس له مثيل .

القاهرة فى ثورة شعبية مخيفة ، ورأى المماليك الخطر الداهم يكاد يبتلعهم ، فاجتمعوا فى الغورية ، ثم ذهبوا بجمعهم إلى الشيخ الدردير ، يطلبون من الشيخ تهدئة الشعب ، وإنهاء هذه الثورة ، واعتذروا عما صنعه أحدهم ، وتعهدوا برد المنهوبات .

ما دام الشعب غافلا جاهلا : ولما أثمرت النهضة الفكرية التى غرسها بيديه أخذ يلح فى طلب الحكم النيابى ويدعو إليه .

وظفر محمد عبده بشهادة العالمية عام ١٢٩٤ هـ ، ١٨٧٧ م ، وأصبح مدرساً بالأزهر ، واختير بعد قليل مدرسا للتاريخ الاسلامى بدار العلوم . وللعلوم العربية بمدرسة الألسن . وفى الأزهر أخذ يدرس المنطق والعقائد على نحو جديد ، ويدعو إلى تدريس الفلسفة ، وإلى فتح باب الاجتهاد ، والعودة إلى أمهات مصادر الثقافة الاسلامية . وفى دار العلوم قرأ لتلاميذه « مقدمة ابن خلدون » ؛ وفى داره كان يتحدث مع زائريه فى السياسة والاجتماع وشئون الفكر ، وأصول الدين . . وهو فى كل ذلك متأثر بنزعات أستاذه جمال الدين ، الذى أثر فى محمد عبده تأثيرا بليغا ، صاحبه طول حياته . وكان جمال كثير الثناء على أخلاق الإمام ، وكان يعبر عنه بالصديق وكان يعجب لأخلاق الإمام وعزة نفسه ، ويقول له : « قل لى بالله أى أبناء الملوك أنت ؟ » . وكذلك كان محمد عبده ينعت جمال الدين بلسان الحق ومحيي الدين ؛ ولم يزل الأفغانى يشعل الثورة فى نفوس المصريين ، ويملؤها إيمانا بالوطن وعزته والشعب وحريته ، وفى وسط الأحداث الكبرى التى كانت تمر بمصر ظهر شعار « مصر للمصريين » ، ووقف الأفغانى فى الاسكندرية قبل خلع اسماعيل يخطب جموع الشعب ويقول : « أنت أيها الفلاح تشق قلب الأرض ، لتنبت فيها ما تسد به الرمق ، ويقوم بأود العيال ،فلماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة كفاحك وتعبك ؟ » .

— ٢ —

وطويت صحائف الأيام ، ومر عام وعام ، وتسنم توفيق العرش بعد عزل أبيه فى الخامس والعشرين من يونيو ١٨٧٩ ، وكان توفيق من قبل يظهر الصداقة والمحبة للامامين ، ويعاهدهما على إيجاد حكم سياسى نظيف فى مصر ، فيما لو آلت الأمور اليه ، وكان من أجل ذلك هوى جمال وحزبه معه .

ولم يتوان توفيق فى أن يستدعى جمال الدين ويقول له : أنت أيها السيد أملى فى مصر الآن. فنصحه جمال بتأييد الدستور ، وإقامة حكم نيابى فى مصر يشترك فيه الشعب اشتراكا فعليا فى حكم البلاد .

ولم يمض غير قليل حتى كان رد توفيق عليه أن انعقد مجلس وزرائه فى ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٩ – أواسط رمضان ١٢٩٦ھ ، وقرر نفى جمال الدين من مصر ، وإقالة محمد عبده من وظائفه العلمية ، وتحديد إقامته فى قريته « محلة نصر » ، وصدر بلاغ رسمى من إدارة المطبوعات يتهم جمالا وحزبه بالإفساد وتضليل الشعب وإثارة الفتن .

ورحل الأفغانى عن مصر التى أحبها ، وسعى مخلصا لها ، بعد أن عاش فيها ثمان سنين ، كانت كلها نضالا وجهادا من أجل مستقبل مصر السياسى ، وحقوق شعبها المكافح الأبى . وعاد إلى الهند مرة أخرى . وكان ذلك آخر عهده بمصر ، وقبل أن يغادر البلاد قال كلمته المشهورة : « إنى تركت فى أرض مصر الشيخ محمد عبده يتم ما بدأت به » .

وتلفت الناس إلى خليفة جمال الدين ليجدوه شبه معتقل فى قريته ، محجور عليه فى أن يعمل لخير وطنه وأمته ، وثار الشعب ، وأشفق رياض باشا من الأمر ، فشفع فى الإمام عند توفيق ، وانتهى الأمر بتعيينه محررا بالوقائع صحيفة الدولة الرسمية ، ولم يلبث محمد عبده أن نهض بالعبء ، وصار المحرر الأول للوقائع ، واختار معه سعد زغلول وعبد الكريم سلمان وابراهيم الهلباوى وسيد وفا ، وهم من تلامذة جمال الدين ، وعلمهم الكتابة الصحفية ، وعودهم على تدبيج المقالات وتحبيرها .

وأحدث محمد عبده ثورة صحفية واجتماعية وفكرية وأدبية ، عن طريق الوقائع التى كان فيها معلما ومصلحا للشعب ، ورائدا وموجها للنهضة الحقيقية ، وكثيرا ما كتب ينقد أعمال الحكومة ، ويدعو الحاكم والمحكوم إلى احترام القانون ، دعوته إلى تنمية الاقتصاد الوطنى ، وتيسير سبل التعليم أمام الراغبين فيه من أبناء الشعب ، وإنشاء المدارس النهارية والليلية. وبجهوده أسس مجلس المعارف الأعلى فى ٣١ مارس عام ١٨٨١ ، وانتخب عضوا فيه ؛ وهو فى ذلك كله إنما يعمل وفق تعاليم أستاذه جمال الدين .

وما فتىء يواصل جهوده فى خدمة الشعب ، وإعداد الرأى العام الوطنى المستنير ، حتى نشبت الثورة العرابية التى كان هو وأستاذه أكبر الممهدين لها ، والغارسين لبذورها ؛ بل كان محمد عبده كما يقول اللورد كرومر : «الروح المدبرة للثورة» ، وكان هو الواضع لصيغة اليمين الوطنى الذى أقسم به جميع رجالات مصر وضباطها على أن يكونوا يدا واحدة ، وهو الواضع كذلك لصيغة القرار الذى عزلت الأمة به توفيق بن اسماعيل ، ودعا

الامام إلى التطوع فى صفوف الجيش المدافع عن أرض الوطن ، وإلى التبرع له بالمؤن والمال والسلاح .

وكان الأفغانى إبان ذلك قد اعتقلته بريطانيا فى الهند . وانتهت الثورة العرابية بالقبض على زعمائها ، ومن بينهم الامام ، وحبس مائة يوم ، حكم عليه بعدها بالنفى ثلاث سنين ، واختار سوريا منفى له فوصلها ، فى نهاية عام ١٨٨٢ ، وأقام فى بيروت ، يعاود نضاله وكفاحه من أجل الشرق الاسلامى عامة ومصر وشقيقها السودان خاصة .

وفى عام ١٨٨٣ أطلقت بريطانيا سراح جمال الدين ، وسمحت له بالسفر ، فسافر إلى لندن ، وفى طريقه إليها كتب إلى الامام يبشره بفك أسره ، وبسفره إلى العاصمة البريطانية ، ووصل جمال الدين إلى انجلترا ، ثم سافر منها إلى باريس ، وأرسل إلى الامام محمد عبده يستدعيه ليلحق به هناك ، فلبى الامام نداء أستاذه فرحا قرير العين .

— ٣ —

وفى باريس أخذ الإمامان يجاهدان من أجل مستقبل الشرق الاسلامى ، ويعملان ليعود للاسلام مجده ، وألفا فيها عام ١٨٨٤ م جمعية العروة الوثقى للجهاد فى سبيل الاسلام والدعوة إليه ، والكفاح من أجله ، والذود عن شعوبه ، وخلق الوعى السياسى المستنير فيها ، ومناهضة الحكم الديكتاتورى ، والعمل على إحياء الأخوة الاسلامية بين شعوب الشرق وعلى قيام الحكم فيها على أساس الدين الذى يأمر بالشورى والعدل بين الناس ، وقد كان فى من مقدمة أهداف الامامين تحرير مصر والسودان من الاستعمار البريطانى

ومن أجل هذه الأغراض النبيلة أنشأ الإمامان جريدة العروة الوثقى في باريس ، وصدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأولى عام ١٣٠١ هـ — ١٣ مارس عام ١٨٨٤ م ولخصا فيه أهدافهما فيما يلى :

أولا : بيان الواجب على الشرقيين ، وأسباب فساد حالهم .

ثانياً : إشراب النفوس عقيدة الأمل ، وترك اليأس .

ثالثاً : الدعوة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها أسلافهم ، وعزوا بها .

رابعاً : الدفاع عما يتهم به الشرقيون عموما ، والمسلمون خصوصاً ، من أنهم لن يتقدموا ماداموا متمسكين بدينهم .

خامساً : إخبارهم بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصه .

سادساً : تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمهيد الطريق إلى جامعة إسلامية تعيد شأن الإسلام الأول ، وتقوية فكرة الرابطة الشرقية بتقوية العلاقات السياسية والتجارية بين شعوب الشرق ، صداً لتيار الغرب وزحفه .

وكان الإمامان يريدان حكومة إسلامية موحدة ، ولما رأيا عدم إمكان ذلك كتبا يدعوان إلى أن تحكم الشعوب الإسلامية بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، ويرتبط بعضها ببعض بروابط محكمة ، وأخذا يناهضان الاستعمار الغربى فى الأقطار الإسلامية ، وخاصة الاستعمار البريطانى فى مصر ، وكانا يدعوان إلى الاجتهاد وترك التقليد فى الدين ،

ويريان أن الاشتراكية فى الإسلام ملتحمة مع العقيدة ، ملتصقة بالأخلاق يبعث عليها حب الخير ، على النقيض من اشتراكية الغرب ، التى يبعث عليه جور الحكام ، وعوامل الحسد فى العمال لأصحاب رؤوس الأموال . وأعلن فى قوة أن الدين لا يخالف الحضارة العلمية ، والفكر الحر النزيه ؛ فالقرآن أجل من أن يخالف نواميس العلم الحقيقى خصوصا فى الكليات .

وظلت صحيفة العروة الوثقى وجمعيتها يؤديان رسالتهما فى عزم وتصميم ومن خلفهما فروع الجمعية السرية العديدة فى شتى الأقطار ، ولكن قوى الاستعمار اجتمعت على محاربة هذه الصحيفة الإسلامية الكبرى ، فتوقفت عن الصدور بعد العدد الثامن عشر الذى صدر فى ٢٦ من ذى الحجة عام ١٣٠١ هـ - ١٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ م .

وفى يوليو عام ١٨٨٤ قبل إغلاق الصحيفة بقليل أوفد جمال الدين الامام محمد عبده إلى لندن لمفاوضة الانجليز فى القضية المصرية والسودانية ، فسافر الإمام إلى انجلترا ، ومعه ميرزا محمد باقر ، وهناك قابل محمد عبده أقطاب الزعماء والساسة والنواب والمفكرين ، وتحدث معهم فى المسائل السياسية ، وكان صوته أول صوت مصرى يرتفع بالمطالبة بحقوق مصر والسودان بعد الاحتلال البريطانى ، ويصور لنا كفاح الإمام ، ومن ورائه أستاذه جمال الدين ، فى سبيل المسألة المصرية ، هذا الحديث الذى دار بين الإمام ومندوب صحيفة الغازيت ، ونشرته الجريدة فى عدد ١٧ أغسطس عام ١٨٨٤ م .

قال الصحفى الانجليزى : إن الشيخ محمد عبده أول مصرى أصيل يزور هذه البلاد ، فهو يقيناً فلاح ، يلبس جبة زرقاء وعمامة بيضاء ، ولا يتكلم الفرنسية ولا الانجليزية ، بل ولا التركية ، إنما يتكلم العربية ، لغة قومه ، وتلك أول مرة يزور فيها الشيخ بريطانيا ، ليرى بعينيه البلاد التى كانت السبب فى نكبة وطنه

— وسأل الصحفى البريطانى الإمام عن رأيه فى الحالة السياسية فى مصر . .

— فرد عليه يقول : إننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية ، كنا نظن أن الانجليز يناصرون قضية الحرية، لكننا لم نعد نعتقد بمثل هذه الظنون ، فإن الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام . إننا نرى أن انتصاركم للحرية هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل . لقد قضيتم على عناصر الخير فينا ، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا

— وعاد الامام يقول للصحفى البريطانى : لم لاتغادرون بلادنا فى الحال ؟ ، لقد علمنا الانجليز شيئا واحداً هو التضامن فى رغبتنا أن نراهم يرحلون عن بلادنا ، حتى إننا أردنا أن نحطم استبداد حكامنا ، ولكننا الآن نعلم أن هناك ماهو شر من استبداد الحكام ، إن لنا إليكم رجاءا واحدا ، هو أن تغادروا بلادنا من غير رجعة

— ولما سأله الصحفى البريطانى عن مشاعر المصريين نحو توفيق، بادره الإمام يقول له : إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم بريطانية

— وقال له الصحفى : إن فرنسا تريد احتلال بلادكم بدلا عنا .

فرد عليه الإمام : إن الفرنسيين يعلمون أننا لانقبل حكمهم كما لا نقبل حكمكم ، نقاومهم كما قاومنا كم ، إننا لا نريد لوطننا حكاماً أجانب عنا ، كائنة ما كانت بلادهم ، ونحن نعرف كيف نجعل حكمهم فينا أمراً مستحيلا .

— ولما هدد الصحفى بحركة المهدى فى السودان ، وأن من أغراضها احتلال مصر ، بادره الإمام :

— لا خطر على مصر من حركة المهدى ، وإنما الخطر من وجودكم أنتم إن المهدى محبوب الآن من الشعب المصرى ، إنه يرى فيه المخلص له من الاعتداء الأوربى ، وسننضم إليه عند قدومه ، واستمر الإمام فى حديثه قائلا : كفوا عن تهديدنا وغادروا مصر .

— ولما تعلل الصحفى بحماية بريطانيا للمسيحيين فى مصر، أجابه الإمام:

— إنه لا نزاع بيننا و بين المسيحيين طالما عاشوا فى ظل قوانيننا ، ولم يتدخلوا فى شئون حكومتنا ، والمذابح التى حدثت كان سببها الانجليز أنفسهم . إن وصول أسطولكم إلى الاسكندرية هو سبب كل الأحداث

— وختم الإمام حديثه مع الصحفى البريطانى قائلا : إذا رأت انجلترا أن تتدارك خطأها ، فيجب عليها أولا أن تقدم إلينا دليلا على إخلاصها وحسن نيتها ، وتأمر بإرجاع جيوشها من مصر ، وثانياً أن تتفق مع دول أوربا ومع سلطان تركيا على إقامة حاكم جديد فى مصر ، وعلى أن يكون مسلماً مصرى المولد ، ويختار من الرجال المحبوبين من الشعب المصرى لمدة

سبعة أعوام أو ثمانية ، وفى نهاية هذه المدة يحق للشعب أن يختار بنفسه من يحكمه .

إننا لسنا نريد ملكا وإنما نريد زعيما اننا معشر المصريين نريد الاصلاح ، نريد العدالة ، نريد حاكما نستطيع احترامه ، دعوا أمتنا تختار زعيمها ، ودعوها تحكم نفسها بنفسها .

هذه هى مصر كما صورها الإمام ، ورغم المحن والأحداث ؛ إنها نفحة من نفحات جمال الدين ، وشعلة من روحه الثائرة الحانقة على الاستعمار والاستبداد ؛ ولقد صار محمد عبده أكبر من عالم ، وأعظم من فيلسوف ، تصدى للاستعمار ولغاراته المستمرة على الشعوب وعلى العقائد الإسلامية ، فكافح كل ذلك بكل ما أوتى من قوة ؛ ومحاوراته مع هانوتو ، وكتاباته عن الاسلام والنصرانية ، لم تكن كما يقول المؤرخون آية نبوغ للأستاذ الامام بين مواطنيه فحسب بل كانت شيئا عظيما بهر الغربيين ، وهزهم من الأعماق ، وكذلك كانت محاوراته مع فلاسفة أوروبا وعلمائها شيئا جديدا جعل من محمد عبده ـ بفضل أستاذه جمال الدين ـ شخصية عالمية ، وطاقة فكرية إنسانية .

وعاد الامام إلى باريس ، ولم يمكث فيها غير قليل حتى أغلقت مجلة العروة الوثقى ، وكلف جمال الدين الامام محمد عبده بالسفر إلى السودان لإذكاء الثورة المهدية وتوجيهها والإفادة منها فى تحرير مصر من الاحتلال .

وسافر الامام سراً إلى تونس ، ومنها إلى مصر خفية ، وأراد أن

ييمم وجهه شطر السودان ، ولكن المهدى كان قد توفى فى الحادى والعشرين من يونيو عام ١٨٨٥ م ، وخلفه التعايشى ، الذى سلم للانجليز فى السودان ، فعدل الامام عن غايته ، وسافر سراً إلى بيروت ، وبقى أستاذه فى باريس ، وفى بيروت ألف الامام هو وتلميذ جمال الدين « ميرزا محمد باقر » جمعية التأليف والتقريب ، للدعوة إلى الاسلام فى جميع أنحاء العالم ، وتعريف الغرب بحقائق الإسلام وحقيقته ، والتعاون على إزالة اضطهاد أوروبا للشرق والمسلمين

وقد دعا محمد عبده كثيراً من المستشرقين ورجال الدين فى أوربا إلى الإيمان بالإسلام وأصوله ، وكتب إلى أحد القسس فى بريطانيا يقول : « لا أظن يوما مر أو يمر على الانجليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذى يؤمنون فيه بدين محمد » ، وكانت دعوة محمد عبده إلى التآخى بين الإسلام والمسيحية قائمة على فكرة التوحيد الموجودة فى الإسلام ، والرجوع إلى الدين الحق ، وهو ديننا الخالد الكريم

وكذلك كان قيام هذه الجمعية تطبيقاً عملياً رائعاً لأفكار جمال الدين ونزعاته وتعاليمه التقدمية الهادفة ، وضرب محمد عبده بذلك أروع الأمثال لشباب العرب والمسلمين عامة . . حيث حمل عبء الإصلاح الدينى ، وحمل مع ذلك رسالة الكفاح الوطنى ، وكان أول زعيم مصرى ينادى بالجلاء وحمل عن مصر والسودان بعد الاحتلال .

* * *

— ٤ —

وفى أواخر عام ١٨٨٨ م عاد الإمام إلى وطنه ، بعد أن ظل فى المنفى ست سنوات ، واتخذ سكناً له فى شارع الشيخ ريحان بجوار عابدين،وكان يقول لأصدقائه : اخترنا هذا المكان لنناطح عابدين وننازلها .

وفى هذه المرحلة بدأ محمد عبده جهاده الفكرى وإصلاحه الدينى فى وطنه ، مصر الخالدة

وقد أخذ الشيخ دعوته إلى الاصلاح الدينى من أستاذه جمال الدين ، الذى كان يعـــد المحرك الأول للشعور الدينى فى العصر الحديث ، وصاحب أعظم دعوة إلى التجديد الدينى . . وجملة مذهب محمد عبده فى الاصلاح الدينى ، أن الاسلام دين بساطة ويسر ، يلائم الفطرة ؛ ويوافق العقل ، وأنه جاء بعقائد سليمة لاتعلو على متناول الفكر الانسانى ، وجاء بأصول للفضيلة والخير تحث على الصالحات ، وتوفر للانسـان كرامته ، وتبعثه للنشاط وطلب الكمال فى نواحى الحياة ، ومن أجل ذلك دعا محمد عبده الى تحرير الفكر من إسار التقليد ، والى اعتبـار الدين صديقاً للعـــلم ، ونادى بأن الدين لا يقف فى سبيل المدنية ، ولكنه يعمل على تهذيبهـــا وتنقيتها من أوضارها ؛ وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفتـه وعرفه أهلها ، وكان يؤمن بالوحدة الاسلامية ويدعو إليها على بصيرة ، ويرى أن إصلاح الأمة لايكون إلا بإصلاح عقولها بالعلم الصحيح وقلوبها بالدين الصحيح ، والسبيل الى ذلك هو إحداث نهضة دينية وعلمية معاً ،

وكان يؤمن بأن الأزهر هو أخصب مكان لاستقبال هذه النهضة وازدهارها ، فالحياة إذا انبعثت فيه سارت مسرعة فى جسم الأمة والعالم الاسلامى كافة .

وبمساعى الإمام صدرت عدة قوانين لإصلاح الأزهر ، وكان من بينها قانون بإنشاء مجلس إدارة لهذه الجامعة الإسلامية الجليلة ، واختيار الشيخ محمد عبده ، وعبد الكريم سليمان ، عضوين فيه ، وبذلك صار للإمام فيه حق الاشراف والتوجيه والإصلاح. ومن عاصر عهد الإمام فى الأزهر شهد ذلك المعهد العتيق الهرم يبعث من جديد طاقة روحية جبارة يغذيها الشباب والأمل والطموح ، ورأى نهضة دينية وعقلية وعلمية لم يكن لها نظير من قبل ، نهضة تحتفظ بأحسن ما فى معارف الأزهر وتقاليده الجامعية العريقة ، وتقتبس خير ما فى الثقافات والمعارف الحديثة ، وربى محمد عبده جيــــلا طموحا إلى الفهم المستقل ، عزوفا عن التقليد ، يشعر بكرامته الإنسانية ويلتمس المثل العليا فى الحياة .

وكان فى شتى المناصب والأعمال التى أسندت إليه — كعمله فى الإفتاء وإشرافه على المحاكم الشرعية وإصلاحها ، وعضويته فى مجلس الأوقاف الأعلى وقيامه بوضع نظام جديد للمساجد ، وسوى ذلك — مثال رجل الدين الوفى لمبادئه ، الحريص على أداء رسالته ، الساهر فى العمل لخــــير الإسلام والمسلمين فى كل مكان .

وأما جهاد الإمام الفكرى . فقد تجلى فى عمله فى القضاء ، وفى مجلس شورى القوانين الذى اختير عضواً فيه ، وفى الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجمعية إحياء الكتب العربية ، وفى كل ميدان من ميادين الحياة ، بما ربى

من أجيال ، وما نشأ من قادة ، وما وجه من تفكير ، وتخرج على يديه الكثيرون من أئمة التفكير المصرى الحديث ، وفى مقدمتهم : سعد والهلباوى ومصطفى عبد الرازق والمنفلوطى والسيد رشيد رضا والشيخ الزنكلونى والمراغى والظواهرى وعبد المجيد سليم وابراهيم حمروش واحمد لطفى السيد وسواهم ، وكان فى ذلك مطبقاً لآراء أستاذه الأفغانى وتعاليمه الجليلة .

— ٥ —

وكان جمال الدين فى عاصمة الخلافة العثمانية يتتبع كفاح تلميذه الإمام فى مصر بفخر وإعجاب ، وفى صباح يوم الثلاثاء الخامس من شوال عام ١٣١٤ هـ — التاسع من مارس عام ١٨٩٧ م ، توفى جمال الدين فى الآستانة ، فبكته مصر ، وبكاه الإمام أحر بكاء ، وظل وفياً لمبادئه ورسالته ، مكافحاً فى سبيل إتمام البناء الذى بدأ أستاذه بوضع دعائمه ، ولم يشهد تاريخ الشرق الاسلامى ثائراً مصلحاً من أبنائه وقادته ودعاة الإصلاح فيه مثل جمال الدين ، وتلميذه الإمام . يقول رينان فى الأفغانى بعد أن لقيه فى فرنسا عام ١٨٨٣ م : لقد خيل إلى من حرية فكره ، وأنا أتحدث إليه أنى أرى وجهاً لوجه ابن سينا أو ابن رشد ، أو بعض أولئك العباقرة الخالدين الذين عملوا لتحرير الإنسانية من إسارها .

ومرت الأعوام بالشيخ الإمام بعد وفاة أستاذه ، وهو يزداد فى مصر والعالم الإسلامى مجداً وعظمة وجلالا ، يسيح فى العالم ، فيزور أوروبا

والآستانة والشام وتونس والجزائر والسودان ، ويتلهف المسلمون فى كل مكان شوقا إلى رؤيته ، وهو يبعث فيهم الحياة والقوة والأمل ، ويناضل استبداد عباس فى مصر ويلقى من مكائده ماينوء بالعصبة أولى القوة من الأبطال ، حتى كان عباس يقول عن الامام : انه يدخل على كأنه فرعون ، ويبلغ ذلك الامام فيقول : جزاه الله ، أنا فرعون أم هو ؟

ويكافح مع ذلك صلف كرومر ودهاءه وبطشه ، ويمضى قدماً إلى غايته ، لايخشى إلا خالقه ، ولايرقب فى الحق الا ولاذمة ، حتى يخر صريعاً ويلقى ربه شهيداً فى ساحة الجهاد ، فى الثامن من جمادى الأولى عام ١٣٢٣ هـ — الحادى عشر من يوليو عام ١٩٠٥ ، فتشيعه مصر ، ويرثيه العالم الإسلامى بأحر العبارات ، وأشجى الزفرات .

وهكذا يموت الأستاذ الامام بنفس العلة التى مات بها أستاذه جمال الدين . ويقول الناس : إنه مات مسموماً بيد عباس ، كما قالوا فى جمال الدين : إنه مات مسموماً بيد عبد الحميد

— ٦ —

ومهما كان فقد جدد هذان الإمامان بعملهما فى السياسة والتربية والتعليم والاصلاح الدينى شباب الشرق الاسلامى ، وأيقظا الشعوب الاسلامية الغافية ، فهبت للحياة والحرية والاستقلال القومى ، وإن جنت عليهما السياسة ، فعاشا مشردين مضطهدين طول حياتيهما ، وكان الامام يتجه إلى أستاذه فى المحنة يقول له : أيها السيد ، أرى أن نترك السياسة

ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء ، السليمي الفطرة ، فنربيهم على منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا ، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين ، لا يمضى بضع سنين إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الإصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح . فيقول له أستاذه جمال الدين : إنما أنت من المثبطين ، نحن قد شرعنا فى العمل ، ولابد من المضى ، فيه مادمنا نرى له منفذاً .

رحمهما الله ، وجزاهما بمثوبته ورضاه . . .

انتهى الكتاب

فهرست الكتاب